عبد الله أنس

ولادة "الأفغان العرب"

سيرة عبد الله أنس
بين مسعود وعبد الله عزام



دار الساقي

وِلادةُ الأفغان العَرب

الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ISBN 1 85516 589 9

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb
DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7221 9347; Fax: 020-7229 7492

قلت للشيخ رباني ممازحاً: قل لمسعود أين ذهب لحمك (فما هو إلا الجلد والروح والعظم). ثم قلت له بيت المتنبي:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لـولا مخـاطـبـتـي إيـاكَ لم تـرني

فابتسم مسعود، وتكلم مشيراً لعبد الله أنس: «لقد قلت له (لعبد الله أنس) إذا رجعت وحدك فلن نسمح لك بدخول «بنجشير». وعبد الله أنس له مكانة مرموقة في قلب أحمد شاه وفي نفوس أتباعه. وكان عبد الله أنس إذا ظهر بين المجاهدين أشارت إليه الأصابع وبدأت الألسنة تردد اسمه. وهو شخصية إسلامية متوازنة وذو أفق واسع، يجد مدخله إلى قلوب مستمعيه، ويختلس أفئدة المحيطين به، ويأخذ بألباب المصغين إليه».

الشـيخ عـبد الله عـزام،

في زيارته الأولى إلى مسعود

المحتويات

مقدمة

منذ بضع سنوات وأنا متردِّد في الكتابة عن تجربتي في أفغانستان، لما لهذا الموضوع من حساسيات لدى جهات مختلفة. إلا أن عودة الأحداث إلى أفغانستان بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، والتي جعلت أفغانستان تحتل الصدارة في الإعلام العالمي، جعلتني أعطي الأولوية لهذا الموضوع، ولا سيما أن عودة الحديث عن أفغانستان يعني تلقائياً عودة الحديث عن المتطوعين العرب، أو من اصطلح على تسميتهم في وسائل الإعلام بـ «الأفغان العرب». وبما أنني أجد نفسي معنياً بهذا الموضوع من قريب أو بعيد، قررت الكتابة عن تجربتي في أفغانستان لعلّي أُسهم في وضع القارئ الكريم في الصورة الحقيقية عن المتطوعين العرب بعيداً عن التشويه والتهويل اللذين تعرَّضت لهما ظاهرة الأفغان العرب، والتي حسب تقديري الشخصي ساهمت فيها أطراف عدة، ولا سيما منها تلك المتمثلة في بعض الأنظمة الدكتاتورية التي لم تجد شماعة تعلق عليها إخفاقاتها السياسية والاقتصادية إلا الأفغان العرب. وأبرز مثال على ذلك هو ما تشهده الجزائر من أحداث دامية نتيجة الانقلاب العسكري الذي أُلغيت بموجبه نتائجُ الانتخابات التي فازت فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ سنة ١٩٩١، والتي ليس للأفغان العرب فيها لا ناقة ولا جمل.

وهناك طرف آخر متمثل في بعض النُّخب العنصرية في الغرب التي تسعى جاهدة إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى الرأي العام العالمي،

بغية الوصول إلى هدفها المتمثل في إحداث صدام بين الحضارات، مستغلة في ذلك بعض التصريحات التي يدلي بها بعض المحسوبين على الصف الإسلامي في وسائل الإعلام الغربية، وهم لا يدركون مدى ضررها على سمعة الإسلام والمسلمين، وإلاّ لما طلع أحدهم في تلفزيون بريطاني ليعلن أن الحضارة الغربية عبارة عن مرحاض، بالرغم من أن الإسلام لم يتعامل مع الحضارات وتجارب الأمم التي سبقته، بهذا الإجحاف في نكران ما لها من إيجابيات. ولا ننسى الآثار السلبية التي خلّفتها تلك التهديداتُ التي أطلقها أحدهم عندما أعلن أنه سوف يرمي بكل الشواذ من أعلى مبنى الـ Bigben، وأنه سوف يفصل النساء عن الرجال في المصاعد في لندن. ولو أنهم درسوا سيرة رسول الله (ﷺ) في مكة قبل المدينة، وصحابته في الحبشة، لأدركوا أن سلوكهم كان غير ذلك (رضي الله عنهم أجمعين).

وسوف يجد القارئ أن معظم فصول تجربتي في أفغانستان، تتركز على شمال أفغانستان، وتحديداً جبهتي الجمعية الإسلامية بزعامة الأستاذ برهان الدين رباني، والحزب الإسلامي بزعامة المهندس قلب الدين حكمتيار، ولا صلة لها بما صار يُعرَف الآن بالمعارضة الشمالية التي تشكلت بعد سيطرة حركة طالبان على الحكم في أفغانستان سنة ١٩٩٦. وهي فترة لا يمكنني الحديث عنها كوني بعيداً عن الأحداث، ولا علم لي بتفاصيلها، عملاً بقوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ (صدق الله العظيم).

كما إن تجربتي هذه، لا تحيط بكل النشاطات التي قام بها كل المتطوعين العرب، سواء على المستوى الميداني داخل أفغانستان، أو على المستوى الإغاثي في مخيمات المهاجرين في مدينة بيشاور الباكستانية، من خدمات إعلامية وتعليمية وطبية وغيرها، جعلها الله في ميزان حسنات الجميع يوم القيامة، إنه قريب مجيب.

وإنما هي تجربة مقتصرة على المجهود المتواضع الذي كنت أقوم به في المناطق التي كانت ضمن نشاطاتي، سائلاً الله التوفيق والسداد.

الفصـــل الأول

اللقاء بالشيخ عبد الله عزّام

مر الجهاد في أفغانستان بمرحلتين. كانت المرحلة الأولى منه سنة ١٩٧٥، عندما أعلنته الحركة الإسلامية الأفغانية التي كانت أنشطتها تتركز في جامعة كابول التي كانت، بدورها، ساحة صراع فكري بين الشيوعيين والإسلاميين بزعامة الأستاذ غلام محمد نيازي عميد كلية الشريعة بجامعة كابول، عندما قام رئيس أفغانستان يومها محمد داود خان الذي وصل إلى الحكم عبر انقلاب عسكري على النظام الملكي بقيادة الملك ظاهر شاه سنة ١٩٧٣، بحملة اعتقالات واسعة في صفوف الحركة الإسلامية وعلى رأسها مرشدها الأستاذ غلام محمد نيازي ومحرّكها الإنجنير(*) حبيب الرحمن سنة ١٩٧٤، حيث أقدم داود على إعدامهما بعد أقل من سنتين على اعتقالهما.

وهو الأمر الذي دفع بمن تبقى من رجالها خارج السجن إلى التفكير في تنظيم عمل مسلح ضد نظام داود. وكان أبرز هؤلاء المهندس قلب الدين حكمتيار والمهندس أحمد شاه مسعود وغيرهما.

وبعد هجرتهم إلى مدينة بيشاور الباكستانية بعد إذن من رئيسها ذو

(*) عندما يُطلَق وصفُ إنجنير في أفغانستان، فإنه لا يعني بالضرورة إنهاء الدراسة في كلية الهندسة، وإنما هو وصف يطلقه الأفغان على كل من يلتحق بكلية الهندسة حتى لو لم يدرس فيها إلا بضعة شهور. والوصف نفسه يُطلَق على طالب كلية الطب، فهو دكتور حتى لو لم يدرس إلا بضعة أيام.

الفقار علي بوتو، الذي كان بدوره يطمح إلى تحويل هذه المقاومة إلى ورقة ضغط على نظام كابول لتحقيق بعض المكاسب على مستوى الصراع الحدودي على المنطقتين المتنازع عليهما في بلوشستان وبشتونستان، وبغض النظر عن الأهداف التي كان ذو الفقار يسعى إلى تحقيقها، فإن هؤلاء المهاجرين لم يكن لهم همٌ سوى إيجاد ملاذ آمن ينجيهم من البطش الذي كانوا يتعرضون له على يد نظام داود.

وبعد فترة لم تتجاوز السنة من الإعداد للعمل المسلح بقيادة المهندس حكمتيار، قامت هذه المجموعات بأول عمل عسكري لها داخل أفغانستان، إذ أقدمت المجموعة الأولى منها على هجوم على مديرية سرخ رود في ولاية ننجرهار استهدف الدوائر الحكومية فيها، إلا أنها سرعان ما تراجعت بسبب المقاومة العنيفة التي واجهتها. وتوجهت المجموعة الثانية بقيادة المهندس أحمد شاه مسعود إلى وادي بنجشير بعد يومين من عملية مجموعة ننجرهار بتاريخ ٢٨ تموز/يوليو ١٩٧٥، حيث تمكنت مجموعته من الاستيلاء على الدوائر الحكومية عبر الوادي كله، إلا أنها لم تتمكن من الاحتفاظ به سوى بضعة أيام، إذ سرعان ما قامت الحكومة المركزية في كابول بإرسال قوات كبيرة لاسترداد الوادي.

بينما بقي حكمتيار في بيشاور ينتظر نتائج العمليات وعودة المجاهدين. وعندما عادوا إلى بيشاور بعد هذه الهزيمة، كان ذلك بداية الخلاف بين مسعود وحكمتيار، وتحديداً عندما رفع مسعود صوته منتقداً حكمتيار، واصفاً إياه بأنه غير كفؤ لقيادة الشباب. ولقد روى لي مسعود روايات كثيرة عن خلافاته مع حكمتيار، ولست هنا في وارد أن أرويها، ليس لأني لا أثق برواية مسعود، فأنا لم أرَ منه إلا الصدق في الحديث، ولكن بسبب أني لم أسمعها من الطرف الثاني، أي حكمتيار، عملاً بقوله ﷺ: كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع. فلئن أبالغ في ذكر محاسن الرجال أسلم لي ولديني من أن أشارك في تشويه صورتهم أو النيل من

سمعتهم، لأن المؤمن يلتمس الأعذار ويستر العورات، والمغرض يعدد الهفوات ويشيع الزلاّت.

كانت هذه نبذة مختصرة عن إعلان الجهاد سنة ١٩٧٥ بقيادة الحركة الإسلامية، بمفردها، بعيداً عن الشعب الأفغاني الذي ظلَّ على الحياد في هذه المعركة التي حُسمت لصالح الرئيس الأفغاني داود.

والعبرة التي يمكن استخلاصها من هذه التجربة، هي أن أي حركة سياسية أو عسكرية لا يحتضنها الشعب، هي حركة فانية لا يمكن أن يُكتب لها البقاء.

إلا أن الانطلاقة الثانية للجهاد الأفغاني كانت مختلفة عن المرحلة الأولى، فلقد كانت هذه الفترة حافلة بالمتغيرات في أفغانستان، بدأت بمقتل الرئيس الأفغاني داود وعائلته بتاريخ ٢٨ نيسان/أبريل ١٩٧٨، ليتم الإعلان عن «نور محمد تركي»؛ زعيم حزب «خلق» الشيوعي، رئيساً لأفغانستان بتاريخ أول أيار/مايو من السنة نفسها، والذي لم يدم حكمه أكثر من ستة عشر شهراً حيث أطيح به من قبل «حفيظ الله أمين» في ١٦ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٧٩. تكرار هذه الصراعات داخل النظام الشيوعي الحاكم في أفغانستان، دفع سكان العاصمة كابول إلى النزول إلى الشوارع احتجاجاً على النظام الشيوعي، فقام النظام بقمع المتظاهرين، وأدى ذلك إلى قتل واعتقال ما يزيد على عشرة آلاف من سكان العاصمة كابول.

كادت هذه الأحداث تعصف بالنظام الشيوعي الحاكم في أفغانستان، مما أدى إلى تعجيل الاتحاد السوفياتي إلى اجتياح أفغانستان في ٢٧ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٧٩، ليتم الإعلان عن «ببرك كارمل» رئيساً لأفغانستان خلفاً لحفيظ الله أمين الذي أُعلن عن وفاته بعد ثلاثة أيام من الاجتياح السوفياتي. دفع الاجتياحُ السوفياتي هذا علماءَ أفغانستان إلى إصدار فتوى توجب الجهاد على الشعب الأفغاني ضد الشيوعية عقيدة الإلحاد التي تسعى إلى احتلال بلاده ومن ثم الوصول إلى المياه الدافئة حيث

منابع النفط، فكانت هذه الفتوى الشرارةَ التي فجّرت الشعب الأفغاني، ومن ثم العالم الإسلامي الذي لم يتأخر عن نصرة الشعب الأفغاني. وكان هذا العبد الضعيف كاتب هذه السطور، يعيش في بلده الجزائر، لا يعرف شيئاً عن أفغانستان ولا عن موقعها الجغرافي، من بين مَن هبّوا لنصرة الإخوان في أفغانستان.

وفي يوم من أيام سنة ١٩٨٣، وفي مدينة بلعباس الواقعة على بعد ٤٥٠ كلم غرب الجزائر، دخلت مكتبة كنت أتردد عليها قصد الاطلاع على آخر الأخبار في العالم. ولم أكن من سكان مدينة بلعباس بل كنت آتيها من منطقتي التي كانت تبعد ٤٠ كلم عنها وتسمّى «ابن باديس»، نسبةً إلى الإمام المجدّد «عبد الحميد بن باديس»، إذ كان يُطلَق عليها قبل الاستقلال سنة ١٩٦٢ اسم Decart نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي الشهير.

لكن دخولي المكتبة هذه المرة، كان مختلفاً عن المرات السابقة، إذ صادف هذا اليوم صدور العدد الجديد من مجلة المجتمع الكويتية، وكانت تحتوي على فتوى موقعة من مجموعة من علماء المسلمين من الخليج العربي، وعلى رأسهم ابن باز (رحمه الله)، وآخرين من مصر وغيرها، مفادها أن الجهاد في أفغانستان فرض عين على المسلمين. وكان من بين الموقعين على الفتوى الشيخ عبد الله عزّام، وكنت على معرفة بهذا الاسم حتى قبل التحاقه بالمجاهدين الأفغان، وذلك من خلال أشرطته وكتبه بحكم انتمائي إلى الحركة الإسلامية على المستوى الفكري، وليس التنظيمي. ولقد كنت أحد مؤسسيها، ومن بين المسؤولين عنها في منطقتي. ولم يكن مني إلا شراء المجلة والتوجه إلى مقهى كان يقع بالقرب من المكتبة كان صاحبه مشهوراً بإتقان قهوة Esspresso. وبعد أن طلبت فنجاناً من القهوة بدأت بقراءة الفتوى وأدلّتها. وكان من بين المخاطر التي نبّهت إليها الفتوى، خطورة ضمّ أفغانستان إلى جمهوريات الاتحاد السوفياتي وفرض عقيدة الإلحاد على الشعب الأفغاني، وهي أدلة جعلتني مقتنعاً بالفتوى.

الذهاب إلى أفغانستان

كنت قد عزمت على الحج في تلك السنة، أي سنة ١٩٨٣، حتى قبيل اطلاعي على الفتوى. وبالفعل ذهبت إلى الحج وفي نيتي البحث عن وسيلة توصلني إلى أفغانستان. وشاء الله لي أن أدخل بئر زمزم في الحرم المكي، فرأيت رجلاً يتضلع من ماء زمزم ومعه أولاده. ولم أكن متأكداً منه، هل هو عبد الله عزام أم لا؟ لأني كنت قد رأيته قبلها بسنة في المدينة المنورة أثناء تأديتي العمرة، إذ أشار إليه أحد الأصدقاء من بعيد قائلاً إن الرجل الذي يقف هناك هو عبد الله عزام، وكان الوقت ليلاً، فلم أتمكن من التدقيق فيه إلا قليلاً، ثم اختفى بين جموع الناس. وهذا هو السبب الذي جعلني أقترب منه حتى أسأله إذا كان هو عبد الله عزام، فأجابني: نعم أنا عبد الله، فقلت له: لقد قرأت الفتوى التي أصدرتها أنت ومجموعة من العلماء بوجوب الجهاد في أفغانستان، وأنا مقتنع بها، لكنني لا أعرف كيف أصل إلى أفغانستان، فقال لي: الأمر بسيط. هذا رقم تلفوني في إسلام آباد، وسأعود إلى باكستان بعد انتهاء الحج. فإذا وصلتَ إلى هناك اتصل بي، وأنا سآخذك إلى زعماء الأفغان في بيشاور. ثم سألني متى أنوي السفر، وما إذا كنتُ أملك ثمن تكاليف السفر، فقلت له: نعم عندي ما يكفيني للسفر وتجهيز نفسي، وسأكون جاهزاً للسفر بعد خمسة عشر يوماً. وفعلاً سافرت إلى باكستان خلال هذه الفترة، بعد أن حصلت على تأشيرة لدخولها مدتها أسبوع، ثم ذهبت إلى الخطوط الجوية الكويتية حيث حجزت مقعداً إلى كراتشي الباكستانية. ولما وصلت إلى مدينة كراتشي أحسست بغربة، إذ تغير عليّ كل شيء. وجدت نفسي في بلد لا أعرف لغته ولا أهله، لأن اللغة المتداولة هناك هي اللغة الإنكليزية التي لم أكن أعرفها. وازدادت غربتي عندما خرجت من المطار وبدأت أمشي في الشارع، إذ كان يمشي معي في الشارع كل المخلوقات. كنت أرى واحداً ينام في الشارع، وفي ناحية أخرى أرى سيارة جديدة من نوع مرسيدس تسير في الشارع، وبجنبها بغل يقوده صاحبه. كل ذلك كان يتحرك في آن

واحد في الشارع، وهو مظهر لم أعتد على رؤيته في الجزائر. وبعد محاولات عديدة تمكنت من شراء تذكرة على الطيران الداخلي إلى إسلام آباد. ولما وصلت إليها ذهبت إلى هاتف عمومي واتصلت بالشيخ عبد الله عزام في بيته، فلما رفع السماعة سلمت عليه وذكّرته بأني أنا الذي التقاه في بئر زمزم واسمي «بو جمعة» أنس الجزائري، فتذكرني على الفور. لكن الذي أثر في نفسي هو سؤاله الأول: هل تعشيت؟ فقلت له: لا، فقال: إذاً سوف أنتظرك على العشاء. فقط خذ تكسي، وأعطِ السائق العنوان، وسوف يوصلك إلى البيت. فلما وصلت إلى بيته الذي كان يقع في حي راق كان يسكنه وبعد أن رننت الجرس، فتح لي الباب واستقبلني استقبالاً حاراً أنساني الشعور بالغربة الذي كنت أحس به عندما وصلت هذا البلد. فلما دخلت البيت وجدت مجموعة من الضيوف يجلسون إلى سفرة الطعام، إذ كان بيته يعج بطلابه الذين يدرّسهم في الجامعة الإسلامية العالمية الكائنة في إسلام آباد. فطلب مني البقاء معه لحين ذهابه إلى بيشاور لأني لا أستطيع التعرف إلى زعماء الأفغان إذا ذهبت إلى بيشاور وحدي. وفعلاً، بعد ثلاثة أيام قام هو بشراء تذاكر سفر إلى مدينة بيشاور التي يستغرق وقت الطيران إليها مدة عشرين دقيقة، وكان برفقتنا اثنان؛ واحد كان زوج ابنته الكبرى فيما الثاني كان أحد أصدقائه. لكن قبل مغادرتنا إلى بيشاور في اليوم الثالث، وعلى سفرة الطعام، قام الشيخ عبد الله عزام بتقديم أحد الضيوف الجدد، ولم أكن أعرف أن هذا الرجل هو من سيصبح اسمه الاسم الأول في وسائل الإعلام العالمية، عندما قال لي أقدم لك الأخ أسامة بن لادن، وهو من الشباب السعودي الذين يحبون الجهاد الأفغاني. وكان ما لفت انتباهي إليه هو كثرة حيائه وقلة كلامه. ثم واصل الشيخ عبد الله كلامه عن أسامة قائلاً لي إنه يقوم بزيارته من حين لآخر في إسلام آباد، لكنه لا ينزل إلى أرض بيشاور. ولم أسأله عن سبب ذلك لاعتقادي أن الأمر راجع إلى تقديراته هو، وليس من اللباقة أن أسأله. وليعذرني القارئ إذا لم يجد في فصول هذا الكتاب ما يتطرق إلى المجهود

الذي كان يقوم به المجاهد أسامة بن لادن، وذلك راجع إلى اختلاف الساحة التي كان ينشط فيها كل واحد منا، حيث كان يرتكز نشاطه على المناطق الحدودية مثل جلال آباد وجاجي، بينما كنت أنا أنشط في شمال أفغانستان. ولم يُكتب لي أن اجتمعت معه في عمل مشترك حتى غادرت أفغانستان. ولا أدع الفرصة تفوتني هنا كي أتحدث عن الشيخ عبد الله عزام حديثاً مختصراً، لأني على يقين من أني لا أفيه حقه إذا تحدثت عنه مفصلاً. ولقد كتب الله لي أن أعيش إلى الآن وأتعرف إلى كثير من الفضلاء والخيّرين في هذه الأمة، ولا أكون مبالغاً إذا قلت إني لم أر رجلاً اجتمعت فيه صفات ومؤهلات كالتي اجتمعت في الشيخ عبد الله عزام، رحمه الله، وهي صفات ومؤهلات يكفي وجود واحدة منها في الشخص كي يكون متميزاً بين أقرانه.

فهو العالم الذي يحمل شهادة الدكتوراه التي لم يكتف بها في حياته العلمية، فكنتَ تراه على رغم كثرة مشاغله وهمومه لا يضيع لحظة من وقته إلا ويستغلها في البحث العلمي وزيادة الاطلاع وكسب المعرفة، وهي عادة لم تفارقه حتى فارق الحياة، رحمه الله.

وهو الزاهد العابد الذي كان يصوم النهار، ويقيم الليل كثيرَ البكاء عفيفَ اللسان مكثراً من تلاوة القرآن وغيرها من أسباب تقوية الصلة بالله. وهي ميزة قلما تتوفر عند من يحملون أعباء ومسؤوليات كالتي كان يحملها الشيخ عبد الله عزام.

وهو المجاهد الذي تنطبق عليه صفة الجهاد بكل معانيها، في ما يتعلق بطلبه الشهادة في سبيل الله. وكان كلما دفن شهيداً بكى عليه بكاءً مراً، وكان يقول كلمته الشهيرة «هذا دليل على أننا لم نصلح للشهادة بعد».

وهو الرياضي الحريص على لياقته البدنية، فكنت تراه بعد صلاة الصبح أول الناس حضوراً إلى طابور الرياضة.

وهو الخطيب الذي إذا صعد المنبر ظننتَ أنه لا يتقن شيئاً إلا فن الخطابة.

وهو المحرِّر والكاتب الذي لا تمر عليه بضعة شهور حتى يبعث بكتاب جديد إلى الطباعة. وليس غريباً إذا قلت إنه كان يحرر أكثر من نصف مجلة الجهاد التي كان يصدرها مكتب الخدمات، بالإضافة إلى نشرات أخرى كان يُصدرها المكتب.

وهو الكريم الذي لا يخلو بيته من الضيوف على مدى أربع وعشرين ساعة يومياً طوال أيام السنة. ولقد حاول الشاعر الدكتور «عبد الرحمن بارود» وصفه في قصيدة يقول فيها عنه: طلعة يوسفية في إشارة إلى وسامته ونور وجهه، وعزمة عمرية، وحسام خالدي.

وكما أشرت سابقاً، فإني لا أستطيع الكتابة عن مناقب الشيخ عبد الله عزام وشخصيته، فذلك يحتاج إلى مجلدات.

الفصـــل الثانـــي

المجاهدون العرب الأوائل

سافرنا إلى بيشاور في اليوم نفسه. نزلنا في طائرة صغيرة أنا والشيخ عبد الله عزام، وزوج ابنته الكبرى، ومهندس معماري كان يريد أن يعرض خدماته على المجاهدين. وصلنا ليلاً، واستقبلنا مكتب الشيخ سياف الذي كان في ذلك الوقت أمير «الاتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان» بعدما فوّضت إليه فصائل المجاهدين تمثيلها. عرّفنا الشيخ عبد الله إلى الشيخ سياف الذي قال: ستذهبون الآن معنا. في القضية الأفغانية حتى الآن اثنا عشر عربياً وأنتم ثلاثة فأصبحتم الآن خمسة عشر.

نعم، كان هذا عدد كل متطوعي الأمة الإسلامية في الجهاد الأفغاني في تلك الفترة.

انتقلنا في البداية إلى قرية بابي وكان فيها، إلى جانب الأفغان، اثنا عشر عربياً أذكر بينهم «أبو الجود العراقي» وشقيقه. قدّمني الشيخ عبد الله إليهم، كما قدّم عربيين آخرين. وكانت بابي خاضعة للشيخ سياف وفيها مخيم اسمه «مخيم البدر». وبانضمامنا نحن الثلاثة إلى هذا المخيم، صار عدد العرب فيه خمسة عشر. وكنا جميعاً «ضيوفاً»، إذ إن المخيم هو للأفغان.

كان الشيخ عبد الله هو من أعطاني في تلك الفترة اسم «عبد الله أنس». كنت أُطلق على نفسي من أيام الجزائر اسم أنس إعجاباً به، على

رغم أن اسمي هو «بو جمعة». ولكن في بيشاور، صار الشيخ عبد الله يُقدّمني إلى المجاهدين قائلاً «هذا أنس. هذا عبد الله أنس». قال لي: عبد الله أنس؟ فقلت له: لا بأس، عبد الله أنس.

في اليوم الثاني، كان الشيخ عبد الله عزام يبيت عند الشيخ سياف. وكنا نحن في المخيم على وشك البدء بصلاة العشاء. قدّمني المجاهدون، فصلّيت بهم صلاة العشاء. وكان مكبّر الصوت يغطي القرية بأسرها. بعد نصف ساعة من انتهاء الصلاة، فاجأنا الشيخ عبد الله عزام والشيخ سياف بدخولهما المعسكر. قال الشيخ عبد الله: من صلّى بكم العشاء؟ فرد أحد الشباب: الجزائري هذا. فتوجه إلى الشيخ سياف: ألم أقل لك إن هذه التلاوة ليست تلاوة أفغانية. فردّ سياف مازحاً: أوَتظن أن الأفغان جُهال لا يقرأون القرآن، وأنتم العرب فقط من يستطيع قراءته؟ ثم أضاف: استمر في الصلاة في الشباب.

وهكذا بدأت أصلّي بهم. لكنني كنت أعرف أنني لم آت لكي أجلس في بيشاور. كنت أريد أن أشارك مشاركة فعلية في الجهاد. أريد أن أتعرف إلى أفغانستان وما الذي يدور فيها، وما الذي يمكن أن نقدّمه. طبعاً، كان للسن دوره، إذ لم أكن تجاوزت حينها أربعة وعشرين عاماً وكنت ممتلئاً حماسة.

تدربنا في معسكر بابي على السلاح بطريقة تؤهل واحدنا للقيام بعمل عسكري داخل أفغانستان. كانوا يعطون المجاهد رشاش كلاشينكوف ويدربونه على طريقة استخدامه في حال تعرّضت قافلة المجاهدين لمكمن روسي. لكنه لم يكن تدريباً عسكرياً محترفاً كالذي يُعطى في الكليات الحربية. كانوا يُعلّموننا المبادئ الأساسية لئلا نقع في الأسر. لكن هذه الأمور كنت أعرفها أصلاً لأنني كنت أديت «الخدمة الوطنية» في الجيش الجزائري.

مثل النمل إلى الداخل

بعد شهرين من وجودنا في قرية بابي، زارنا الشيخ عبد الله وقال: يا شباب، نريد الآن أن نوزّعكم داخل أفغانستان. نريدكم على شكل جماعة التبليغ. لكن خروجكم سيختلف عن خروج هذه الجماعة. نريدكم أن تخرجوا إلى داخل الولايات الأفغانية لكي نعرف حقيقة ما يدور فيها. إذ كانت الصورة آنذاك تلك التي ينقلها الإعلام الغربي فقط. وهذا بالفعل ما تحققت منه بنفسي. إذ كنت العربي الأول الذي يصل إلى مزار الشريف في شمال أفغانستان، لكنني عندما وصلت وجدت مجموعة من الفرنسيين سبقتني إلى هناك بأربع سنوات. كم هم متقدمون على الأمة الإسلامية، حتى في قضاياها!

وأوضح الشيخ عزام للشباب أن من يريد الدخول إلى أفغانستان «فهذه فرصته»، إذ إن هناك قوافل للمجاهدين تتأهب للتحرك إلى الداخل، ويمكن ترتيب دخول من يرغب من العرب ضمن هذه القوافل. وأضاف: من يُرِدْ منكم أن يخرج لشهر أو لستة شهور فله ذلك. أنتم من يختار المناطق التي تريدون الذهاب إليها. أمامكم المناطق الحدودية، أو المناطق الغربية، أو الشرقية، أو الشمالية. فكنت أنا من الذين رفعوا أيديهم، وقلت إنني أريد المناطق الشمالية البعيدة على حدود الاتحاد السوفياتي. فقال لي الشيخ عبد الله، وكان معه أحد العلماء الأفغان ويدعى مولوي عبد العزيز، وهو من مزار الشريف، إن قافلةً ستتحرك إلى شمال أفغانستان، وتحديداً مزار الشريف، بعد عشرة أيام. وطلب مني أن أُجهّز نفسي للالتحاق بها.

كانت قوافل المجاهدين تأتي من داخل أفغانستان. يأتي المجاهدون بالمئات، وأحياناً بالآلاف، من دون سلاح. ثم تتولى الحكومة الباكستانية الإشراف على تسليحهم وتدريبهم. وكان المجاهدون يتوزعون على سبعة أحزاب أكبرها اثنان: الحزب الإسلامي بزعامة قلب الدين حكمتيار،

والجمعية الإسلامية بزعامة برهان الدين رباني. وكان هذان الحزبان القوة الضاغطة الأساسية داخل أفغانستان.

بعد أن ينتهي تدريب المجاهدين وتسليحهم داخل باكستان تبدأ الرحلة إلى الداخل. كانت كل قافلة تضم ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مقاتل. كانوا يعودون إلى الداخل «مثل النمل»: هذه قافلة جيلاني، وهذه قافلة محمد نبي، وتلك قافلة حكمتيار، وهذه قافلة سياف. وكانت هذه القوافل تسير طبعاً في ظل قصف عنيف يمارسه الروس الذين يحاولون قطع خطوط الإمداد على المجاهدين. ولكن ذلك لم يكن ممكناً، فالشعب كله هبّ للجهاد.

كانت القافلة المتوجهة إلى مزار الشريف تابعة للجمعية الإسلامية بزعامة برهان الدين رباني. ومن بين أفرادها كنا، نحن العرب، الوحيدين فيها: السوري أبو أسيد، والكويتي ضياء الرحمن، وأنا.

توجه الشيخ عبد الله إلينا قبل انطلاقنا في القافلة وقال: تعلمون أن الأفغان يقاتلون عدوهم الآن في شكل أحزاب، وليس تحت راية حزب واحد أو جيش واحد وقيادة واحدة. هم أحزاب، ولا نُحب أن تُؤْثروا حزباً على حساب الآخر.

ثم أعطاني رسالة وأمّرني على المجموعة وقال لي: عندما تصل إلى مزار الشريف، في اليوم الثالث أو الرابع، بحسب ما تُيسّر لك ظروفك، لا بد من أن تزور «أمير» الحزب الإسلامي في المنطقة. فالولاية لا تكون خاضعة فقط لحزب واحد وإنما لكل الأحزاب. هناك شخص اسمه مولوي عبد السلام، يجب أن تذهب لزيارته لئلا يظن أن العرب يقفون مع حزب ويهملون حزباً آخر. نحن ضيوف على الشعب الأفغاني كله. فإذا بتنا ليلتين عند الحزب الإسلامي، فيجب أن نبيت ليلتين مماثلتين عند الجمعية، لئلا نُحسَب على طرف.

حفظنا هذه التوجيهات وذهبنا. وضعونا في قافلة، وكان الشتاء على الأبواب.

كان فصل الشتاء قد حلّ عندما استعدت القافلة لعبور الحدود الباكستانية إلى داخل أفغانستان. اشتريت بعض الملابس لأتقي بها صقيع الشتاء الأفغاني القارس. انطلقنا، لكنني لم أكن أعرف حجم المغامرة التي أُقدم عليها. سرنا أربعين يوماً. كانت الثلوج تتساقط علينا، والبرد يخترق العظام. توفي واحد معنا في القافلة من شدة البرد. ولكن لم يكن من مفر سوى متابعة الرحلة على رغم كل الصعاب. فالعودة إلى باكستان مستحيلة.

وعلى رغم كل هذه المصاعب، كنا نشعر بسعادة تغمر قلوبنا. كانت تغمرنا السعادة لأننا، على أقل تقدير، نساهم مع هؤلاء الأفغان الشجعان الذين بدأوا الجهاد قبلنا بخمس سنوات، وما زالوا صامدين على رغم كل العظمة العسكرية للاتحاد السوفياتي.

في الطريق إلى مزار الشريف، دخلنا منطقة تُدعى هزارجاد، وهي للشيعة في وسط أفغانستان. أذكر أنني لم أكن أعرف الفارسية بعد، وكان معنا مترجم هو نفسه بحاجة إلى من يترجم له لكي يفهم علينا ويُفهمنا ماذا يحصل. كان يسألنا، مثلاً: هل تريدون تخما (بيضاً)؟ لكننا لم نكن نفهم ماذا يقصد. في هزارجاد، أخذني جانباً قائد القافلة. كان عمره أربعاً وعشرين سنة، ويُدعى ظريف، وهو ظريف فعلاً. تأثرت به. أعجبني أنه لا يزال في سن الشباب ولم يدرس في كليات حربية، لكنه على رغم ذلك يتحمل مسؤولية قافلة تضم ٣٠٠ مجاهد محمّلة بالسلاح والذخائر، يريد أن ينقلها من باكستان إلى مزار الشريف على حدود روسيا. كنت أنظر إليه نظرة إكبار، ولا أدري ما الذي حصل له. إذ لم أره مطلقاً بعد رحلة تلك القافلة.

جاءني قائد القافلة وكلّمني بحكم أنني «أمير» الأخوة العرب. قال: في هذه المناطق عليكم لمدة ثلاثة أيام أن تسيروا بلا كلام. لا بد من أن

تُغيّروا أيضاً القبعات التي على رؤوسكم وتضعوا عمائم محلها. وعلى رغم صعوبة الفهم بيننا، إذ إنه لا يعرف العربية جيداً ونحن لا نعرف لغته، لكننا فهمنا أن هناك رسالة يريدنا أن نستوعبها وهي ليست في مصلحتنا. وبالتكرار، فهمنا أنه يقول لنا إننا الآن في مناطق الشيعة والسكان لا يحبوننا، وإنهم لو عرفوا أننا من العرب فسيعطّلون القافلة بسببنا. وحتى الآن، لا أفهم ذلك التغيير، لماذا كانوا يريدون فعل ذلك بنا، إذ كنا قبل دخولنا مناطق الشيعة نشتري رغيف الخبز بثلاث روبيات، أي أقل بكثير من بنس أميركي واحد. لكننا عندما دخلنا مناطق هزارجاد صرنا نشتري رغيف الخبز بثلاثين روبية. عجبنا لذلك، عجبنا أيضاً عندما رأينا هذه المناطق خضراء والورشات فيها مفتوحة والحياة فيها تدب، في حين تعاني بقية أفغانستان من الدمار. لكن ذلك بالنسبة إليّ لم يكن يعني شيئاً. فأنا جئت من منطقة ليس فيها عرق طائفي، الحمد لله، والجميع فيها مسلم، وليست عندنا مشكلة المجتمعات التي تتكون من عرقيات وطوائف ومذهبيات مختلفة.

ثلاثة أيام بلا كلام... وتحقيق!

على أية حال، كنا نسير في تلك المناطق ونحن صامتون. ثلاثة أيام كنا طوالها مثل «الأطرش بالزفّة»، لا نعرف ما الذي يدور حولنا. كنا نتناول عشاءنا الأخير في هزارجاد، كان الوقت ليلاً عندما وصلت فرقة تفتيش إلى المطعم. وعندما أقول مطعم، فهذا لا يعني المطعم بالمعنى المعروف. فهو في الحقيقة أشبه بزريبة مُغطاة بالزنك وفيها إبريق شاي يغلي. وعندما نقول «عشاء»، فالمقصود هو «الشاي والخبز»، الذي كان طعامنا في معظم الأيام الأربعين لرحلتنا. طبعاً الشاي بدون سكر. توجهت مجموعة المفتشين، وهم من القادة المحليين المسؤولين عن تلك المنطقة، إلى قائد القافلة ظريف وسألته: «هل معكم أجانب هنا؟»، قال: ليس بيننا أجانب، قالوا له: بل بينكم أجانب. اقتربوا مني وقالوا: تكلّم

بالفارسية. التزمت الصمت. فعرفوا أنني أجنبي، وطلبوا مني أن أسير معهم. سرنا قرابة عشر دقائق. أدخلوني إلى مركز قيادتهم. رأيت شباباً من الهزارة الشيعة وعلى الحائط وراءهم صورة ضخمة للإمام الخميني تغطّي الحائط كله. قال لي واحد منهم وكان يتكلم العربية وأعتقد أنه قائدهم، إذ جلس في صدر المجلس والناس تقف إلى يمينه وشماله: من أين أنت؟ قالها باللهجة المفخّمة. أجبته: أنا جزائري. فسألني: كيف تدخل أفغانستان من دون تأشيرة؟ قلت له: لا أعرف أنني أحتاج إلى تأشيرة. ففي أفغانستان نظام خاضع للروس، وشعب أفغاني يقاوم ليحرر أرضه. ونحن دخلنا مع هؤلاء الذين يريدون تحرير أرضهم. لم أعرف أن عليّ أن أحصل على تأشيرة منكم أيضاً. فقال: لا بد لك من أن تحصل على تأشيرة لتدخل أفغانستان، ولا بد لك من إذن حتى تدخل مناطقنا. فقلت له: حصل ما حصل، فماذا عليّ أن أفعل الآن؟ قال: لا بد من أن ننظر في أمرك. شعرت بأن الأمر قد يزداد تعقيداً ولن يستطيع المجاهدون نصرتي، إذ عليهم أن يسيروا في منطقة هزارجاد قرابة سبعة أيام قبل الوصول إلى منطقة لا تخضع للهزارة. وبالتالي، فإن قافلتنا، وإن ضمت ٣٠٠ مقاتل، إلا أنها لا يمكنها أن تنصرني لأنها ستخسر المعركة في النهاية. إذ يمكن أن يقطع الهزارة الطريق ويحاصرون القافلة. ولم أجد تفسيراً لذلك، وهل هو لأسباب مذهبية، أم لأسباب داخلية.

فكّرت في الأمر. ألهمني الله أن أقول لقائد مجموعة الهزارة: حسناً، قبل أن آتي إلى أفغانستان كنت في الجزائر. وهناك كنا نقرأ أن الإمام الخميني إمام المستضعفين. وأنا إنسان مستضعف الآن. كنت أظن أنني سأكون ضيفاً على الشعب الأفغاني، لكن مقابلتك هذه صدمتني. وبعد ذلك، لان الجو. وقال لي: اذهبْ خلاص. أكمل طريقك مع القافلة.

ذبيح الله ومزار الشريف

بعد مسيرة أربعين يوماً، وصلنا إلى حدود الولاية التي تقع فيها مزار الشريف. كنت قد ابتُليت بسقوط أظافري بفعل الثلوج، فأوصلوني إلى

النقطة الأولى من نقاط الجمعية الإسلامية وتركوني فيها. إذ لا يمكن أن تنتظرني القافلة، فعليها أن تسير مسافة ثلاثة أيام أخرى للوصول إلى وجهتها في قلب الولاية.

ولدى وصولنا إلى حدود الولاية، بدأ المجاهدون يُكبّرون ويُطلقون النار فرحاً. قالوا لي: سنأخذكم إلى بيت قاري إبراهيم، وهو أحد قادتهم في المنطقة. أخذوني إلى بيته وبدأوا يبحثون عن طبيب أو دواء لمعالجتي. لكنهم لم يجدوا شيئاً، فوضعوني في الفراش وأتوا بمادة مصنوعة من العنب يخزّنونها. وضعوا لي منها على أظافري وضمّدوا قدمي وقالوا: الله يشفيك. وغادروا.

بقيت هناك ثلاثة أيام حتى خفّ الألم. تابعت الرحلة مع بعض الشباب والتحقنا بالقافلة إلى وجهتها النهائية. كنت أسمع طوال الرحلة ـ في أيامها الأربعين ـ بزعيم اسمه ذبيح الله، هو «أمير» ولاية مزار الشريف. وكان تحت إمرته قرابة تسعة آلاف مجاهد. كنت ألاحظ طوال هذه الرحلة، المجاهدين يتلهّفون للوصول إلى مزار الشريف لرؤية ذبيح الله. عجبت لدرجة تعلّق هؤلاء المجاهدين بقائدهم. ولكثرة تلهّفهم إليه، صرنا نحن العرب أيضاً متلهفين لرؤية هذا القائد الأسطورة. ذبيح الله، ذبيح الله؛ كنا نسمع بهذا الاسم على الدوام. وكنا كلما دخلنا منطقة أو منزلاً نسمع باسمه أيضاً. كل شخص في المنطقة كان يمتدحه ويذكره بإجلال.

فجأة، بدأ العويل والبكاء. ارتبكت القافلة. لم نكن نعرف شيئاً عما يحصل. فاللغة جديدة، وكذلك العادات والتقاليد. فقال لي «أبو أُسيد السوري»: لا أدري ما الذي حصل لهم؟ الأمور تغيّرت. بدأنا نحاول أن نحشر أنفسنا في ما يحصل علّنا نسمع خبراً يشرح لنا ما الخطب. لكنهم أخفوا عنا كل شيء. كنا نقترب منهم، ويكونون ثلاثة أو أربعة جالسين بعضهم إلى بعض، لكنهم ما أن يلحظوا وصولنا حتى يمسحوا دموعهم

ويصطنعوا الابتسام. ربما لم يريدوا إقلاقنا. لكننا عرفنا أن شيئاً كبيراً حصل.

بعد وصولنا إلى مزار الشريف، استقبلنا أميرها بالنيابة مولوي علم، وكان عالم دين تخرّج من كلية الشريعة في كابول. لكنه أخفى عنا الخبر أيضاً. كنا نقول: أين ذبيح الله؟ نريد أن نرى ذبيح الله. كان الناس طوال الرحلة يتكلمون عنه، والآن قضينا أربعة أيام في الولاية ولم نره. أين الأمير؟ أخفوا الأمر علينا حتى أعلنه زعيم الجمعية الإسلامية برهان الدين رباني من مقر قيادة حزبه في بيشاور لوسائل الإعلام. قال إن ذبيح الله تعرّض لعملية اغتيال من قبل الروس بتفجير سيارته. كانت المنطقة كلها في حداد. كنا نسمع عويل النساء من داخل بيوتهن، على رغم شدة محافظة الشعب الأفغاني. هول الصدمة كان عظيماً. أدركت قيمة هذا الرجل العظيم في منطقته، وإلى أي حد يُقدّره الناس. بقينا معهم وحزنّا معهم. وأثناء ذلك، اتّفق على تعيين مولوي علم أميراً خلفاً لذبيح الله، وتشكّلت الجبهة من جديد.

بعد فترة بدأنا نعي ما يحصل من حولنا، إذ بدأت فارسيتنا تتحسن. صرنا نستطيع أن نضع كلمة إلى جانب أخرى، لنصل إلى معنى ما نريده... بعد تكرار الجملة عشرات المرات.

أمير صيب

إضافة إلى تقدير المجاهدين لذبيح الله، الأمير المباشر للمنطقة، لفت انتباهي أن هناك اسماً آخر يُطرَق باستمرار إلى جانب اسمه. كانوا يكررون دوماً عبارة «أمير صيب»، ولكن من دون تحديد المقصود. «أمير صيب» تعني «الأمير المحترم»، وهي كلمة تعني بالفارسية «أمير صاحب»، والكلمة الأخيرة يلفظها الأفغان «صيب». لكنهم لم يكونوا يذكرون اسم هذا «الأمير المحترم». سألت مولوي علم، الأمير الذي خلف ذبيح الله: من المقصود بـ «أمير صيب»؟ فأجابني: يقصدون أحمد شاه مسعود. وتبينّ لي أن هذا

الرجل لا يقلّ تأثيراً عن ذبيح الله. فقلت لمولوي علم: أين يقبع أحمد شاه مسعود؟ ولم أكن حتى ذلك الوقت قد سمعت باسمه. فقال لي: أحمد شاه مسعود قائد عظيم، دوّخ الروس في أفغانستان، وجبهتنا كلها تأتمر بأمره، وهو الذي درّب ذبيح الله وهو أستاذه في الجهاد.

فكّرت في الأمر ووجدت أن ذبيح الله الذي كنت أشعر بأنه الأول والأخير في أفغانستان، يذوب أمام رجل آخر اسمه أحمد شاه مسعود. وكنت بدأت أدرك في تلك الأيام الأولى من وجودي في شمال أفغانستان، أن هناك نوعاً من الخلافات داخل جبهة مجاهدي الجمعية الإسلامية. تبيّن لي أن هناك خلافاً بين ثلاث شخصيات على قيادة الجبهة خلفاً لذبيح الله: مولوي علم الأمير العالم، وعلم خان القائد العسكري في أيام ذبيح الله، وعلم خان آخر كان نائباً لذبيح الله.

وقع خلاف بين الثلاثة على من يخلف ذبيح الله: العالم مولوي، أم القائد العسكري، أم نائبه الفعلي. وكان هناك قائد قوي في المنطقة يدعى مولوي عبد الله عالم، وكان قاضي الجبهة. كانت شخصيته قوية جداً، واستطاع حسم الخلافة لمصلحة مولوي علم. لكن هذا لا ينفي أن الجبهة كانت بالفعل بدأت تشهد تفككاً. فالانسجام أيام ذبيح الله الذي كان يأتمر بأمره تسعة آلاف مجاهد، بدأ يتفكك. وعلى رغم تعيين أمير من الناحية الإدارية، إلا أن الولاءات على الأرض كانت اهتزت.

كنت لا أزال جديداً بينهم، لكنني أدركت أن الأوضاع لا تسير في مسارها الصحيح. فخطر في بالي مسعود، هذا الرجل الذي ذُكر اسمه أمامي والذي يحظى بهذا القدر من الإعجاب وهو محل إجماع حتى عند هؤلاء الثلاثة المختلفين بحكم أن أباهم الروحي ذبيح الله، قائدهم المحنك، هو نفسه يذوب تحت تأثير شخصية مسعود. قلت إن الثلاثة سيأتمرون تلقائياً بأمر مسعود. فخطر في ذهني أن أطلب منهم نقلي على جناح

السرعة لأرى مسعود وأطلعه على المشكلة التي قد تقع في المستقبل، وبسببها يمكن أن تتفكك الجبهة.

رجعت إلى مولوي علم وقلت له: هل يمكن أن ترسلني إلى أحمد شاه مسعود. فقال: كيف تذهب إلى مسعود؟ نحن الآن في فصل الشتاء، وإذا أردت الانتقال إلى بنجشير فإنك ستقضي خمسة عشر يوماً لتصل. الطريق شاقة ويمكن أن تموت في الطريق. يمكن أن تسقط في مكمن روسي. يجب أن تقطع خمس ولايات من مزار الشريف للوصول إلى بنجشير. بعد مزار الشريف، هناك ولايات سمنجان وقُندز وباغلان وتاخار قبل الوصول إلى مسعود في بنجشير. أجبته: لا بد من أن أذهب. لكنه منعني من السفر.

وتبيّن لي أن الأمر أكبر بكثير منا، نحن العرب الثلاثة الذين جئنا مع القافلة. كنا ثلاثة شبان ليس لدينا خبرة ولا تدريب ولا مال. ففكّرت في أن المشاركة في الجهاد أكبر من مستوانا بكثير. ما يحتاج إليه الشعب الأفغاني، سواء على المستوى التثقيفي أو التعليمي أو الإغاثي أو الدعوي أو حتى الحربي، هو مشاركة أقوى وأعلى من مستوانا.

قررت، بعدما منعني من الذهاب إلى مسعود، أن أعود إلى بيشاور على وجه السرعة. لم يكن هناك مفر من ذلك، فالأوضاع كانت على حافة الانفجار، وتيقّنت من أن قيمة مشاركتنا في الجهاد الأفغاني، نحن العرب، سطحية جداً ولا تكفي، وأنه لا بد من مخاطبة العالم الإسلامي ليتحمل مسؤوليته. فالقضية الأفغانية أكبر من خمسة رجال عرب أو خمسة وعشرين عربياً أو خمسين عربياً. كنت أُفكّر في أن أشرح هذا الأمر للشيخ عبد الله عزام على أن ينقل هو هذه الصورة إلى العالمين العربي والإسلامي، ويطلب مزيداً من الدعم للقضية الأفغانية.

قال لي مولوي علم: إذا كنت مصراً فسنجهز لك قافلة تُعيدك إلى

باكستان. ليست قافلة كاملة وإنما سبعة رجال أو ثمانية يكونون بمثابة دليل لك في الطريق. فقلت له: قبل أن أعود إلى باكستان، وفي انتظار ترتيب أمر القافلة، عندي تعليمة من الشيخ عبد الله عزام تنص على ضرورة أن آتي بصورة كاملة عن قادة «الحزب الإسلامي» و«الاتحاد الإسلامي» والحركات الأخرى الناشطة في المنطقة، لئلا تقتصر الزيارة على قادة «الجمعية الإسلامية» فقط.

أعطاني مولوي علم حصاناً ودليلاً. وقال إن مولوي عبد السلام، أمير «الحزب الإسلامي» بقيادة قلب الدين حكمتيار، يسكن في المنطقة الفلانية التي تبعد يوماً ركوباً على ظهر الحصان. ذهبت إليه. كانت المناطق التي نقطعها كلها جبلية. ليست فيها طرقات، ولا كهرباء، ولا شيء. وكان هو على علم بأن مجموعة من العرب وصلت إلى مزار الشريف، وكان على أتم الاستعداد لاستقبالنا. وما أن وصلنا إلى الوادي حتى بدأوا بإطلاق النار فرحاً بنا. سألنا مولوي عبد السلام، وكان يتكلّم العربية، عن الأوضاع في بيشاور وعن حكمتيار. ومن خلال حديثه، أدركت أمراً ثانياً وهو أن قادة «الحزب الإسلامي» متعلّقون بحكمتيار تعلّق مؤيدي «الجمعية الإسلامية» بذبيح الله ومسعود. كانت صور حكمتيار في كل مكان، وأشرطة محاضراته تُسمَع كل يوم في المغاور والجبال حيث مراكز «الحزب الإسلامي». بقيت مع «الحزب الإسلامي» ثلاثة أيام تعرفت خلالها إلى حجمهم، وتنقلت معهم في جبهاتهم، واستطعت أن أكوّن صورة أوضح عن أفكارهم وطريقة عيشهم.

كذلك ذهبت في زيارة أخرى إلى مولوي جمعة، وهو أحد القادة التابعين للشيخ سيّاف في المنطقة. وكان الشيخ عزام، عندما كنت في بيشاور، عرّفني إلى عبد الرسول سيّاف بصفته «أمير المجاهدين» في ذلك الوقت، لأنهم بايعوه في مكة المكرّمة بعدما فُتحت لهم الكعبة. وعلى هذا الأساس، كان الشيخ عزام يأخذنا تلقائياً إلى سيّاف. لكن هذه الصورة تغيّرت خلال وجودي في داخل أفغانستان، ورأيت أن الثقل الحقيقي هو

لـ «الحزب الإسلامي» و«الجمعية الإسلامية»، وليس لسياف. وهذا ليس لعجز فيه، لكن السبب هو أن سياف خرج من السجن سنة ١٩٨٠ بعد أن كان حكمتيار وبرهان الدين رباني قد استوليا على معظم أفغانستان.

العودة إلى بيشاور

رجعت إلى باكستان. استغرقت الرحلة هذه المرة ثلاثين يوماً وليس أربعين يوماً. فالقافلة المحملة بالأسلحة يختلف تنقلها عن تنقل مجموعة صغيرة من ثمانية أشخاص.

وجدت أن الأوضاع تغيّرت في باكستان. استغرقت رحلتي كلها قرابة أربعة شهور فقط. لكنني عندما رجعت وجدت الأمر تغيّر. فالشبان الذين تركناهم في بابي بين الأفغان وجدناهم في بيشاور قد فتحوا مضافة مستقلة للعرب اسمها «مضافة أبي عثمان». والمضافة تعني بيتاً خاصاً. كان العرب قبل ذهابنا إلى مزار الشريف ينزلون عند الشيخ سياف في قريته بابي، وكان عددهم لا يتجاوز الخمسة عشر. لكنهم الآن بات لهم بيتهم الخاص، كما إن عددهم ارتفع إلى سبعين أو ثمانين شخصاً.

رجعت إلى الشيخ عبد الله، رحمه الله، وكانت فرحته بقدومي لا توصف. فهو يرى أول شخص عربي يعود من قافلة أرسلها إلى داخل أفغانستان، وها هو يروي الآن أمامه الصورة الكاملة الحقيقية للوضع في الداخل. نقلت إليه الصورة، وشرحت له من هو مولوي علم ومولوي عبد السلام وقادة الجهاد الآخرون في شمال أفغانستان.

وكان من بين الأمور التي حصلت أنه أخذني إلى برهان الدين رباني، زعيم «الجمعية الإسلامية». فقال لي: كيف رأيت جبهاتي في الداخل؟ لم يكن رباني قادراً في ذلك الوقت على الانتقال إلى الداخل. وكان المقاتلون بمعظمهم لا يعرفون قادتهم. وبعض الأمراء كان يجاهد منذ سنوات ولم يلتق بأميره أبداً. قادة الجهاد الأفغاني كانوا متمركزين في باكستان مثل

سياف وحكمتيار ورباني، وكان ارتباطهم بقادة الجبهات في الداخل عبر موفدين في معظم الأحيان. كان الموفد يأتي من الجبهات إلى بيشاور ويلتقي قادة الجهاد ويحمل التعليمات إلى الداخل. ثم صارت باللاسلكي في ما بعد.

قال لي رباني: كيف رأيت قادتي هناك؟ فقدّمت إليه صورة عمّا رأيتُ. لكنني قلت له إنني أخشى ما يمكن أن يحصل مستقبلاً. فهناك ثلاثة أسماء مطروحة لخلافة ذبيح الله، ولكل منها قوتها واحترامها وهيبتها بين المجاهدين في صفوف الجمعية في مزار الشريف. وقلت له إنني أخشى أن ينفجر الوضع بين الثلاثة ـ وهم مولوي علم وعلم خان وعلم خان نائب ذبيح الله ـ وتتأثر بذلك الجبهة برمتها، وهو أمر يمكن أن يستغلّه الروس. فقال لي: إنني أتابع هذا الأمر بقلق، فماذا تقترح؟ قلت له إنني لا أزال قليل الخبرة، ولا أعرف ماذا أقترح، ولكن ما يمكن أن أقوله هو أن مولوي علم إنسان لا غبار عليه. فقال إنه يفكّر في تشكيلة معيّنة لإرضاء الخواطر: أن أُبقي مولوي علم في منصبه أميراً على المنطقة، وعلم خان في وضعه القديم قائداً عسكرياً، وأسحب علم خان (نائب الأمير وليس القائد العسكري) وأرسله ليمثّل الجمعية الإسلامية في مكتبنا في القاهرة. ولم تكن مصر آنذاك تعارض الجهاد الأفغاني، بل كانت تقدّم إليه الدعم. وأذكر أنني وجدت على بعض الجبهات أفغاناً يفضّلون الكلاشينكوف المصري على الصيني.

العرب قطرة في بحر

قدّمت إلى الشيخ عزام تقريراً مفصلاً عن زيارتي، وقلت له: يجب أن تعلم أن مشاركة العرب في أفغانستان هي قطرة في بحر. إن الأموال التي في أيديكم لا تكفي لإطعام جبهة واحدة ليوم واحد. وكان الشيخ عبد الله عزام أعطاني عندما ذهبت إلى أفغانستان مساعدة مقدارها مئة ألف روبية باكستانية لإعانة المجاهدين. وبالكاد غطّى هذا المبلغ نفقات رحلة

القافلة إلى الداخل. إذاً، كان واضحاً أن مساعدات العرب للأفغان لم تكن بشيء يُذكر.

وقلت له أيضاً: الأمر أكبر بكثير من الإمكانات التي عندنا. الجهاد يحتاج إلى مساعدات أكبر وأعداد أكبر وإلى نوعيات قبل العدد. إن الشعب الأفغاني متعصّب للمذهب الحنفي ولا يعرف شيئاً عن المذاهب الأخرى. وبالتالي، فإن على أي عربي أن يفهم هذا الوضع قبل دخوله أفغانستان. ولا بد، أولاً، من دعاة قادرين على الدعوة الإسلامية بالحكمة، وعلى قدر كاف من الذكاء واللباقة. إذ ليس كل خطيب داعية يصلح للمهمة. لا بد من داعية ذكي لبق قادر على التعامل مع مجتمع معقّد وسطحي مثل المجتمع الأفغاني. ثانياً، يجب أن تكون لدى الدعاة قدرة على إصلاح ذات البين. فللأسف، إضافة إلى قتال المجاهدين الروس داخل أفغانستان، إنهم يتقاتلون أيضاً في ما بينهم. إننا بحاجة إلى أشخاص قادرين على تقريب وجهات النظر بين الحزب الإسلامي والجمعية الإسلامية خصوصاً، لأن أكبر المشاكل داخل أفغانستان كانت بين هذين الحزبين، بحكم الندية. وقلت، ثالثاً، إن علينا جلب مزيد من الإغاثة إلى الشعب الأفغاني لأن ما يُقدَّم إليه ليس سوى قطرة في بحر.

وأذكر أنه قال لي: إذاً، لا بد من أن تذهب معي في موسم الحج عام ١٩٨٥. فهناك سأعطيك الكلمة للتحدث في رابطة العالم الإسلامي في مكة، ويجب أن تنقل هذه الصورة إلى العلماء.

مكتب الخدمات

ثم كشف لي الشيخ عبد الله أنه أسس، خلال غيابي في الشمال الأفغاني، مكتباً أطلقَ عليه اسم «مكتب الخدمات»، وكانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها بمكتب الخدمات. قال: أسسنا مكتب الخدمات نحن ومجموعة من الأخوة في غيابك، وكان بينهم أسامة بن لادن. أسسنا المكتب لتنظيم مشاركة العرب في الجهاد الأفغاني. لا نريد إبقاءهم في

المضافات الأفغانية المتفرقة. نريد أن نجعل لهم مواقع مستقلة فتكون مشاركتنا مع الجميع، وليس مع طرف واحد ضد آخر.

ثم شرح لي هدف تأسيس المكتب قائلاً: الشعب الأفغاني منقسم إلى سبعة أحزاب، وإذا بقي الأمر كما هو الآن، أي أن يشارك العربي مع من يشاء من فصائل المجاهدين، فإن خلافات الأفغان في ما بينهم ستنعكس على العرب الذين سيختلفون بالتالي في ما بينهم. وأداؤنا هنا بدل أن يكون إيجابياً سيتحول إلى مشاركة سلبية. فالدعاية المضادة التي يقوم بها هذا الحزب ضد الحزب الآخر سيتبناها العرب الذين مع هذا الحزب. وفي الوقت ذاته فإن العرب الذين يقاتلون مع الجانب الآخر سيحملون الدعاية المضادة نفسها ضد الآخرين. وإذا تأثر العرب، في كلا الطرفين، بأفكار الأحزاب التي ينتمون إليها، فإن الخلاف سينتقل بدوره إلى العرب الذين سيكونون مشكلة على الشعب الأفغاني بدل أن يكونوا عاملاً مساعداً لقضيتهم. ومن هنا، لما كانت المهمة صعبة جداً، فإنها كانت أيضاً تحتاج إلى أشخاص خاصين لكي يقوموا بهذا الأمر.

وأضاف: على هذا الأساس أسسنا مكتب الخدمات لينظِّم المشاركة في أي عمل داخل أفغانستان، ويجب أن يمر عبر المكتب ليفهموا (الأفغان) أننا جئنا إلى داخل أفغانستان للوقوف إلى جانب شعبهم برمته، وليس إلى جانب حزب ضد آخر.

من هنا، جاءت فكرة تأسيس «مكتب الخدمات» في أواخر ١٩٨٤ ومطلع ١٩٨٥. تأسس المكتب ليقوم بهذه الأبعاد الثلاثة: إغاثية وإصلاحية ودعَوية. بدأ المكتب بفتح معاهد ومدارس في داخل أفغانستان، كما فتح معاهد دينية للأفغان الذين فروا إلى باكستان، وكان عددهم يُقدَّر بثلاثة ملايين. وبالنسبة إلى البُعد الإغاثي، تولى المكتب كفالة الآلاف من الأيتام والأرامل. طبعاً، لم يكن المؤسسة الإغاثية الوحيدة في بيشاور، إذ كان هناك الهلال الأحمر السعودي والهلال الأحمر الكويتي، وكانت هناك أيضاً

مؤسسات إغاثية غربية من بريطانيا وفرنسا وأميركا وألمانيا.

لكن ثمة فرقاً كبيراً بين العمل الإغاثي الذي يقوم به «مكتب الخدمات»، والعمل الذي تقوم به مؤسسات الإغاثة الأخرى. فهذه كانت كلها ابتعاثية، أي أن المسؤولين عنها مبتعثون من قبل حكوماتهم لفترة محددة، قد تكون سنة أو سنتين أو ثلاثاً. أما «مكتب الخدمات» فكانت مهمته تنظيم المتطوعين وليس المبتعثين. المؤسسات الأخرى كانت تمتلك إمكانات كبيرة لأنها كانت مبتعثة من دول. لكن مشكلتها أنها لم يكن عندها متطوع ينقل المساعدات إلى المحتاجين داخل أفغانستان. فكان لا مفر أمامها من التعامل مع المكتب الذي كان بمثابة «اليد الضاربة» التي تنقل المساعدات إلى الداخل. فإدخال الأدوية أو البطانيات أو الملابس أو المساعدات العينية إلى الداخل ليس رحلة أو جولة سياحية، إذ يمكن أن تموت وتفقد قافلتك كلها. وبالتالي كان ضرورياً وجود متطوع جاء قبل أي شيء آخر ليستشهد. وهذا الفرق بين المبتعث والمتطوع. فالأول مبتعث من دولته ليمضي سنة أو سنتين في ساحة بيشاور، بسيارة وحرس خاصين في بيشاور. المساعدات كانت تأتي بالطائرات من العالم العربي، لكنها كانت تُخزَّن في بيشاور، وهناك مسافة طويلة لنقلها إلى داخل أفغانستان.

المبتعث يكون متعهداً لدولته أن يمثّلها في بيشاور، لكنه ليس مستعداً للذهاب عبر الحدود قاطعاً تلك المسافة الطويلة ماشياً على رجليه إلى قندهار ومزار الشريف في رحلة قد تكلّفه حياته. ومن هنا، كان لا بد من العنصر العربي، لأن رأس الأمر فيه هو أنه جاء للشهادة في سبيل الله. وبالتالي، فإنه في طريقه إلى داخل الجبهات في أفغانستان كان ينقل معه ألف بطانية أو خمسين ألف حذاء أو مستشفى متحركاً. فنَقْل الإغاثات كان مهمة ضمنية ضمن مهمته داخل أفغانستان.

على هذا الأساس، كانت مهمة مكتب الخدمات فعالة جداً. وكان الشيخ عبد الله عزام، رحمه الله، يحاول دائماً الحفاظ على هذا الكيان لئلا

ينشغل في معارك جانبية أخرى غير الجانب الأساسي الكبير الذي جئنا من أجله، وهو أن نقف إلى جانب الشعب الأفغاني وننصره ونساهم في تعليمه وإغاثته وألاّ نغرق في المفاسد التي تحصل بين فصائله.

ولذلك، حُصر عمل «مكتب الخدمات» بثلاث مهمات (إغاثية، إصلاحية ودعَوية)، كان الشيخ عبد الله لا يقبل دونها أي تفريع. فقد كان هناك بعض الشبان يقولون أحياناً: لماذا لا تُجري لنا دروساً في المضافات في بعض المواضيع، مثل الولاء والبراء وتكفير هذه الحكومة أو تلك. وكان يرد: أنتم يا أخوة منَّ الله عليكم بأن تأتوا إلى هذه الأرض للجهاد في سبيل الله، وهذا الشعب الأفغاني بحاجة إلى مساعدتكم التي لا تُقدَّر بثمن، وهي لمصلحتكم أنتم قبل أن تكون في مصلحتهم هم. فلا تُفرِّعوا معركتكم. حُكّام العالم لا يهموننا. معركتنا هنا محصورة بأفغانستان.

لم يكن الشيخ عبد الله مهتماً سوى بالقضية الأفغانية. كان يذهب إلى السعودية ويخطب في مساجدها علناً، ويجمع التبرعات بالملايين. وكان المسؤول عن البريد في «مكتب الخدمات» ينزل كل يوم إلى مكتب البريد ويأتي بعشرات الرسائل تضم شيكات، الواحد منها بعشرة آلاف أو عشرين ألف دولار من التبرعات التي تأتي من السعودية والعالم الإسلامي. وحتى السلطات السعودية، كانت تُقدّم حسماً مقداره خمسة وسبعون في المئة على تذاكر السفر لمن يريد الذهاب للجهاد في أفغانستان.

إلى ذلك الوقت، لم يكن «مكتب الخدمات» ذلك المكتبَ الخطير. كان رئيسه الشيخ عبد الله عزام يصول ويجول في المملكة والخليج. وكان يزور كل سنة أميركا لحضور المؤتمرات، ويُكلِّم المسلمين الأميركيين عن الجهاد الأفغاني. وكانت مكاتب المجاهدين؛ مكاتب حكمتيار ورباني وغيرهما، منتشرة في أنحاء العالم الغربي. لم يكن هناك آنذاك غبار على الجهاد الأفغاني الذي يريدون تصويره الآن بُعبعاً يُهدِّد العالم.

الفصـل الثالـث

اللقـاء بمسعـود

طلب مني الشيخ عبد الله عزّام في بيشاور، أن أذهب معه إلى مكة المكرمة في موسم الحج ١٩٨٥، لشرح قضية ما رأيت في الشمال الأفغاني للعلماء المسلمين الذين يجتمعون سنوياً في مبنى رابطة العالم الإسلامي. وكان الجهاد الأفغاني في ذلك الوقت مصدر الاهتمام الأساسي للأمة الإسلامية، ولم تكن هناك قضية توازيه اهتماماً. لم تكن الانتفاضة الفلسطينية قد انطلقت بعد، ولا الجبهة الإسلامية قد ظهرت في الجزائر. ذهبت معه إلى مكة. وكنت قلت له، بناءً على الانطباعات التي كوّنتها من خلال رحلتي في داخل أفغانستان عام ١٩٨٤، إنني أُقدِّر حجم المساعدة التي يجب أن نطلبها، وهو أن يوفّر لنا العالم الإسلامي مئة داعية قادرين على إصلاح ذات البين يتوزعون على الولايات التسع والعشرين في أفغانستان. فليس كل داعية متخرّج من معهد شرعي، يصلح للمهمة. يجب أن يكون على قَدْر من النضج والذكاء، ويجب عدم إرسال دعاة يزيدون المشاكل ويُكفّرون الناس، لمجرّد قول كلمة «آمين» جهراً. فالأفغان يُسرّون بكلمة «آمين»، بعد أن يقرأ الإمام الفاتحة، في حين يُجاهر بها أتباع المذاهب الأخرى. وصار بعض الناس يقول إن الأفغان مبتدعة وخارجون على السُّنة. ولذلك، لم نكن نريد دعاة يهتمون بهذا القدر من الأمور الفقهية السطحية المختلفين فيها، والمنتشرة في أفغانستان. وشعب بهذا القدر من السطحية والإيمان العفوي، يحتاج إلى نوع خاص من الدعاة المدركين

لأولويات الواجبات التي تنتظرهم. كان مشروعي إيفاد مئة داعية من العالم الإسلامي نوزّعهم، كل اثنين أو ثلاثة على ولاية، ويكونون حلقة وصل بين مشاركة الأمة الإسلامية والجهاد الأفغاني، إغاثياً ودعوياً وإصلاحياً. وما لم تكن في هؤلاء الدعاة سعة الأفق والنضج، فإنهم سينحازون إلى طرف ضد آخر، وسيصيرون جزءاً من أي نزاع بين الأفغان. فالأولى ألا نقف مع هذا الطرف أو ذاك، وألاّ نعادي هذا الطرف أو ذاك. يجب أن نكون على الحياد، ونحاول جهدنا أن نكون حلقة خير.

وعلى هذا الأساس طلب مني الشيخ عبد الله أن أذهب معه إلى مكة، في موسم الحج، لطلب مئة داعية. قلت له: أريد العودة إلى مزار الشريف، فماذا يمكن أن أفعل في مكة؟ أنت العالم المعروف، والخير فيك. فرد: لا، يجب أن تنزل معي إلى مكة لأنك شاهد عيان على ما يحتاج إليه الشعب الأفغاني. ذهبت معه إلى مكة. وقف الشيخ عبد الله في مبنى رابطة العالم الإسلامي في عرفات، وكان معظم علماء الأمة حاضرين. خطب فيهم، وكان الشيخ، وقت ذاك، رمز الجهاد الأفغاني، والأمة كلها تنتظر ماذا سيقول. جلست أستمع إليه في الصف الثاني. وقف يتكلم، وقال إنه جاء بشخص كان في مزار الشريف سينقل إليكم الأهوال التي رآها هناك، وسيقول إن الجهاد الأفغاني بحاجة إلى مساعدة أكبر مما تتصورون. وإنه يطلب منكم أن توفروا مئة داعية بمواصفات معيّنة «ثم حاسبوه على الجهاد بعد سنتين من ذلك». وطلب مني أن أقف وأحدّث العلماء بما شاهدت. لكنني لم أفعل. كان عمري لا يزال خمساً وعشرين سنة، ولا أحد من الأمة يعرفني. فمن أنا حتى أتكلم في هؤلاء العلماء. لم أقوَ على الموقف، ولم أرَ في نفسي القدرة على التحدث. فجلست وكسرت كلامه. لم يكن يراني. كنت أراه لأنه واقف على المنصة، أما أنا فكنت بين الحاضرين. وكان أحد الأصدقاء جالساً بقربي، فصار يحضّني على الوقوف والتقدّم نحو المنصة. لكنني قلت له: «اتقِ الله». ظل الشيخ عبد الله يكرر طلبه أربع مرات، والناس تنتظر مني أن أقف وأتحدث

في المنصة. ويبدو أن الشيخ اقتنع أخيراً بأنني لن أقف فقال: «لا بد من أنه استحى»، ولكن هذه هي رسالته لكم وهو يقول لكم إن الجهاد الأفغاني يحتاج إلى كذا وكذا.

بعد ذلك، وعلى انفراد، قدّمني الشيخ عبد الله إلى بعض الدعاة والعلماء، وجلس بعضهم معنا وقدّم تبرعات إلى الجهاد الأفغاني. ثم عدت بعد هذه الرحلة مع الشيخ إلى بيشارو.

مزار الشريف مرة ثانية

كنت قررت الذهاب إلى مزار الشريف مرّة ثانية. فبعد ٢٠ يوماً من عودتي من مكة إلى بيشاور، قلت للشيخ عبد الله: لا يمكن أن أرجع إلى مزار الشريف وأنا لا أحمل شيئاً في يدي. فالناس جياع محرومون ويعلّقون علينا الآمال. فقال: إلامَ تحتاج؟ فكررت له أنني بحاجة إلى شخصيات يمكن أن تؤدي دوراً إيجابياً وتتمتع بمرونة وحنكة وصبر على الأفغان. وذكرت له أخاً تعرّفت إليه قبل ثلاثة أيام أو أربعة وأُعجبت به كثيراً. قلت للشيخ عبد الله: هذا الرجل ربما كان على يده خير كبير في أفغانستان إذا دخل إليها. فقال لي: من؟ قلت له: وائل جليدان «أبو الحسن المدني». فقال: هذا الأخ كان يدرس في أميركا، وجاء لمساعدة الشعب الأفغاني، لكنني أعتقد أن دوره في بيشاور قد يكون أهم بكثير من دوره في أفغانستان.

كم كان الشيخ عبد الله صاحب نظرة ثاقبة. إذ بعد سنة من هذا الحديث الذي دار بيننا، رجعت إلى بيشاور ووجدت أن صوت هذا الرجل لا يقل أهمية عن صوت الشيخ عبد الله عزام، وكان اسمه عند قادة الجهاد لا يقل طرقاً عن اسم الشيخ عزام، سواء عند برهان الدين رباني، أم قلب الدين حكمتيار، أم عبد رب الرسول سياف. وحتى في مكاتب الإغاثة، كان هناك إجماع على تقدير دوره. ففي فترة قصيرة حوّل هذا الشخص

الهلال الأحمر السعودي في بيشاور من مكتب ميّت للإغاثة إلى مكان تضج فيه الحياة.

بعدما اعتذر الشيخ عبد الله عن موضوع طلبي إدخال جليدان إلى أفغانستان، سألني: إلامَ تحتاج؟ فأجبته: نحتاج إلى أطباء. فرد عليّ: أنت تعلم أنني لست الآمر الناهي هنا. نحن نتعامل مع متطوعين. نُرغّبهم بالأجر في الآخرة، فإن فعلوا جزاهم الله خيراً، وإن لم يفعلوا فإننا لا نأمرهم. أمامك المضافة، تستطيع أن تنقل إلى الأطباء العرب الموجودين - وكانوا قلة - مأساة الجرحى الذين رأيتهم، فإن تأثروا فلعلك تكون كسبت أحداً منهم تنقله معك إلى داخل أفغانستان. فقلت له: حسناً. بدأت أدور على الأخوة. ذهبت أولاً إلى الدكتور صالح الليبي، أحد الأطباء المتخرجين من بريطانيا. قلت له: ذهبت إلى مولوي محمد علم في مزار الشريف ورأيت عنده مؤسسة طبية فرنسية تعمل على معالجة الأفغان، لكنها لا تكفي. وهم عتبوا جداً عليّ، وقالوا: هؤلاء فرنسيون موجودون عندنا منذ أربع سنوات، فأين أخوتنا في الدين؟ أين أخوة الإسلام المفروض بهم أن يكونوا هنا قبل غيرهم؟ ثم قلت له: إنني بالفعل محرج جداً، وأخشى أن أعود إلى مزار الشريف خالي اليدين. فكّر الدكتور صالح، رحمه الله، في الأمر يومين، ثم أبلغني موافقته على الذهاب معي، ففرحت. كان هناك أيضاً طبيب مصري يدعى الدكتور عبد الظاهر قال لي: أنا أيضاً سأذهب معك في سبيل الله. وهكذا حصلت على طبيبين. ولا أستطيع وصف الخير الذي تحقق على يديهما في معالجة حالات كانت صعبة جداً، وخاصة الدكتور صالح الليبي، رحمه الله.

ثم ذهبت إلى مقر الهلال الأحمر السعودي وحملت من عندهم بطانيات، ألفين أو ثلاثة آلاف بطانية، وأحذية. وتوجهت بعد ذلك إلى مقر الهلال الأحمر الكويتي وحصلت على مجموعة أخرى من المعونات. كذلك جلت على مؤسسات إغاثية أخرى، وجمعت ما يقرب من حمولة عشرين بغلاً من الأدوية. كما حملت بعض التبرعات من الشيخ عبد الله

الذي كان جمعها بدوره من المحسنين. وقال لي: خذها معك، هذا نصيب الحزب الإسلامي، وهذا نصيب الجمعية، وهذا نصيب حزب الشيخ سياف، وهذا نصيب هذا الحزب وتلك الجهة.

وأذكر أن توزيع الحصص كان يُسبِّب بعض المشاكل، خصوصاً عندما يقول حزب من الأحزاب إنه يستحق نسبة أكبر من التي يحصل عليها. وقد واجهت مشكلة بسيطة مع الشيخ سياف سرعان ما سُوِّيت. فقد كان الخارج يعتبر أن الشيخ سياف هو الرقم الأساسي في أفغانستان، لأنه كان أمير الاتحاد الإسلامي. وكانت الأمة الإسلامية تظن أنه الرقم واحد. ولكن ميدانياً، كانت حصة الأسد لحكمتيار ورباني. وهكذا، عندما دخلت أفغانستان للمرة الأولى نقلت هذه الصورة إلى الشيخ عبد الله عزام، وقلت له إن جماعة الحزب الإسلامي في مزار الشريف تحتاج إلى كذا، وجماعة الجمعية الإسلامية تحتاج إلى كذا، وحزب الشيخ سياف يحتاج إلى كذا، وهي نسب أُقابل بها الله يوم القيامة. لكن الشيخ سياف غضب وقال: لقد خدعك الحزب الإسلامي وأوهمك أن لا نفوذ للاتحاد الإسلامي في مزار الشريف. فقلت له: لقد قمت بزيارات وبقيت عند قادتك ثلاثة أيام، والنسب التي حددتها ليست فيها مبالغة. غضب الشيخ سياف من ذلك، لكن المشكلة زالت لاحقاً. وكما أسلفت سابقاً، فليس عدم انتشار حزب سياف في أفغانستان هو لأنه عاجز أو قاصر، وإنما بسبب أنه خرج من السجن متأخراً، وهو شخصية قيادية لا يُستهان بها في أفغانستان.

رحلة الصيف

تحرّكت إلى الداخل بقافلة لا بأس بها. لم تكن تغطي كل حاجات الشمال الأفغاني، لكنها كانت معقولة. وإضافة إلى المساعدات التي كنا نقلها، كنت سعيداً بأنني نجحت في اصطحاب طبيبين: الدكتور صالح ـ استشهد رحمة الله عليه ـ والدكتور عبد الظاهر الذي بقي معنا عاماً في شمال أفغانستان، ثم عاد إلى باكستان، وكانت له مشاركة حسنة نرجو الله

أن يجعلها في ميزان حسناته. وأعتقد أنه الآن موجود في مصر.

عدت إلى مزار الشريف وكان الوقت صيفاً. قطعنا الطريق في نحو ثلاثين يوماً. لم تكن هناك مخاطر كبيرة، إذ مع كل سنة من الجهاد الأفغاني، كانت خطورة الطرق تقل. الاتحاد السوفياتي كان يضعف، وكذلك قدرة الحكومة الشيوعية الموالية له. في حين كانت حركة المجاهدين تزداد قوة، حتى وصلنا إلى فترة صرنا نتنقّل فيها بالسيارات ولم نعد نخشى الروس وكمائنهم.

ما أن وصلنا إلى مزار الشريف حتى وجدت أن المشكلة التي تركتها قبل مغادرتي لا تزال قائمة: التنافس بين قادة المجاهدين على خلافة ذبيح الله. وكان لا بد من حل المشكلة بين المتنافسين الثلاثة، مولوي محمد علم (الأمير الذي خلف ذبيح الله)، علم خان (نائب ذبيح الله)، وعلم خان (القائد العسكري).

فعزمت مرة ثانية على الإفادة من رصيد أحمد شاه مسعود. رجعت إلى طرحي الأول، وذهبت إلى مولوي علم وقلت له: ليست عندك حجة الآن لتحول دون ذهابي إلى مسعود. أريد لقاءه. فقال لي: يمكنك أن تلتقيه. كلّفَ دليلاً اسمه عبد القادر السيّار لتأمين نقلي. وكان هذا طوال فترة الجهاد منذ ١٩٧٩، حلقة الوصل بين مسعود وذبيح الله. كان ينتقل بين القائدين بمعدّل رحلتين في الشهر. يسير إلى مسعود، ثم يعود إلى ذبيح الله. وجدته على هذا الحال قبل وصولي بخمس سنوات، وأُطلقَ عليه «السيّار» لكثرة سيره. وبما أن بعض الاتصالات والتعليمات لا يمكن أن تُعطى بالشيفرة اللاسلكية خشية أن يكتشفها الروس، كان هذا الشخص هو ناقل الأسرار العسكرية الخطيرة بين مسعود وذبيح الله، من بنشجير إلى مزار الشريف. كم عانى هذا الرجل في سبيل الله. كان يقطع كل شهر الطريق سيراً لمدة خمسة عشر يوماً، ثم يعود كما جاء. ظلّ على هذا المنوال خمس سنوات، صيفاً وشتاءً. مشيت مع «السيّار» خمسة عشر يوماً إلى أن

وصلنا إلى منطقة حدودية بين بنجشير وسلطان شيرا. كانت منطقة جبال شاهقة في سلسلة الهندوكوش. هناك اتخذ مسعود مركز قيادته، بعدما انسحب من وادي بنجشير. فقد كانت القوات السوفياتية بدأت بالتنسيق مع وزارة الدفاع الشيوعية في كابول، في ٢١ نيسان/أبريل ١٩٨٥، حملة أطلق عليها «الحملة الشرسة» لتصفية المقاومة في وادي بنجشير. لذلك انسحب مسعود في تلك الفترة إلى جبال الهندوكوش التي تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. وهي سلسلة طويلة جداً وتضم جبالاً صخرية ارتفاع الواحد منها ما لا يقل عن سبعة آلاف متر.

وصلنا إلى تلك المنطقة المعروفة بسلطان شيرا في وقت لم يكن أحد سمع فيه بأي أخبار عن مسعود طوال ثلاثة شهور. كانت الاستخبارات السوفياتية الـ «كي جي بي» تبحث عنه للقضاء عليه، فاختفى في تلك المنطقة. ومع مرور الشهور، ازدادت حيرة الروس. فانطلقت إشاعات تقول إنه قُتل، في حين بثت إذاعة روسية أنه غادر أفغانستان إلى أميركا لملاقاة الرئيس رونالد ريغان. لكن مسعود لم يكن غادر المنطقة الجبلية المتحصن فيها في سلطان شيرا. ولعل الكلام الروسي كان مجرد تكهنات، لأن موسكو نفسها لم تكن تعرف مصيره.

وهكذا تزامنت فترة وصولي لزيارة مسعود مع الحملة الروسية الضخمة لتصفية المقاومة في وادي بنجشير. ما أن وصلنا إلى منطقة سلطان شيرا حتى التقينا بإحدى مجموعات المجاهدين. إذ كان مسعود وزّع قواته مجموعات، تضم الواحدة منها من عشرة عناصر إلى اثني عشر عنصراً، ونشرها على الجبال. كنا نحتاج إلى مسيرة يوم حتى نصل إلى الموقع الذي يقيم فيه مسعود. كان صقيع الثلوج يتغلغل إلى صدورنا، وكان المجاهدون يعرفون بالطبع عبد القادر «السيار» الذي قال لهم: لقد جئتكم بضيف عربي مُرسَل من مولوي محمد علم، وكان موجوداً معنا في مزار الشريف، وهو أصر على أن يرى مسعود. فقالوا له: انتظر. أبقونا عندهم في النقطة

الأولى ثلاثة أيام، إلى أن أرسلوا إليه خبراً بوجودي أو تلقوا الموافقة منه على السماح لي بالزيارة.

كانت ملاحظتي الأولى عن هؤلاء المجاهدين أنهم يختلفون عن المجاهدين، الذين كانت أراهم في كثير من مناطق أفغانستان. ففي خلال تنقلنا في المناطق الأفغانية كنا نبيت كل مرة في مركز من مراكز المجاهدين، وكنت أرى فيهم البساطة والإيمان الأفغاني. لكنني لم أكن أرى فيهم وعياً. لكن، في سلطان شيرا، شعرت بأنني مع مجموعة واعية، هي لا تتولى القيادة، بل مسؤولية القتال. كانوا جنوداً عاديين. أعطاني ذلك انطباعاً عن أن المنطقة التي أنا فيها ربما كان مقاتلوها أكثر علماً وثقافة من غيرهم. مجموعة المقاتلين التي رأيتها في هذا الوادي كنت أراها في المناطق الأخرى، أمراء أو قادة. فمثلاً، من بين الأسئلة التي طرحها عليّ أحدهم وكان يدعى حسين: هل يمكن أن تشرح لنا كيف أن الشعب الجزائري قاتل في سبيل الله، لكنه لم يقم دولة إسلامية بعد الثورة. فالجهاد كان باسم الله ضد الفرنسيين، لكن الثمرة لم تكن باسم الإسلام.

عندما طُرح عليّ هذا السؤال تعجّبت. لم أتعود أن يسألني المجاهدون هذا النوع من الأسئلة. قلت لنفسي: كيف يعرف حسين كل هذا عن الجزائر؟ بعض المجاهدين الآخرين كان لا يعرف أين تقع الجزائر في خريطة العالم. كانوا مجاهدين بسطاء. سألني واحد منهم مرة: مَن الحزب الأقوى في بلدكم: «برشم» أم «خلق»، الحزب أم الجمعية؟ كان يظن أن الحزبين الشيوعيين الموجودين في أفغانستان، موجودان أيضاً في كل أنحاء المعمورة، وان الانقسام بين الحزب والجمعية ينطبق أيضاً على الجزائر والعالم الإسلامي.

كانت إذاً أول مجموعة التقيتها تضم مجاهدين مثقفين، وكانت مجموعة قتالية ليست مُكلَّفة بالإعلام أو بالسياسة. أخذت فوراً انطباعاً آخر عن نوعية المجاهدين هنا. بقيت معهم ثلاثة أيام، ثم قالوا لي: الأمير يطلبك.

هناك لا يُقال «مسعود». فهو بين جنده وقادته «أمير صيب» فقط؛ «الأمير المحترم». وعلى رغم أن هذا التفخيم في الشخص ليس من عاداتنا وتقاليدنا، لكنني الآن وسط تقاليد قوم آخرين، ويجب ألا أشذ عنهم. فصرت أقول مثلهم «أمير صيب» بدل مسعود. لم يكن لائقاً أن أطلق عليه تعبيراً آخر لا يطلقه عليه أبناء منطقته.

وصلت إليه بعد مسيرة ثلاث ساعات. ما أن رأيته حتى لاحظت تجاعيد وجهه. أعطاني وجهه انطباعاً فورياً بأن الرجل ليس بسيطاً. كانت شخصيته مميزة. ابتسم لي، فابتسمت. قال: فارسي ميفهمي؟ (هل تتكلم الفارسية)؟ قلت له: كم كم (شوية شوية). فرد: «خاه خاه» وهي تعني بلغتهم «طيب طيب». كان إلى جانبه عالم هو مولوي غلام قاري، وكان يتولى مهمة تدريس مسعود الذي كان، على رغم كل هذه الظروف التي يعانيها وتحت وطأة الحملة الروسية عليه، لا يترك الحصة الدينية، فيتلقى كل يوم ساعة دراسة في المذهب الحنفي. لأنه كان مطلوباً من كل قائد أن يكون على معرفة بالفقه الإسلامي. فلا يُعقل أن تكون قائداً للأمة وأنت لا تعرف مذهبها. ولم يكن مسعود متخصصاً في الفقه، إذ إنه درس «بوليتكنيك» (كان مهندساً). وعلى هذا الأساس، كان الدرس الديني أمراً ملحاً عليه إلى أقصى الحدود. وكان على هذا العالم المسكين، مولوي غلام قاري، أن يبقى مع مسعود كل يوم ليعطيه الدرس الديني، على رغم أن «أمير صيب» كان يتنقل كل يوم من مكان إلى آخر، بما يتناسب وحجم المؤامرة التي يتعرض لها، مثل محاولة القبض عليه أو قتله. كانت حياته كلها محفوفة بالخطر. لكن معظم تحركاته في ذلك الوقت انحصرت بسلسلة جبال شيرا التي يمكن التنقل فيها مسافة أربعة أيام قبل الانتقال إلى منطقة أخرى خارجها.

سألني مسعود، وكان مولوي غلام قاري يتولى الترجمة: من أين أنت؟ أجبت: من الجزائر. قال: ما اسمك؟ قلت: عبد الله أنس. فقال مسعود بالفارسية: هل أنت قارئ (القرآن)؟ قلت: أحاول. قال: هل

يمكن أن تتلو علينا بعض الآيات لأسمع تلاوتك. فتلوت أواخر سورة آل عمران. فقال للمولوي مازحاً: يبدو أنك خسرت مكانتك من اليوم! فرد مولوي: نحن لا نمانع في أن نتعلم من إخواننا العرب، فهم يتلون القرآن أفضل منا. فقال لي مسعود: من الآن فصاعداً سآخذ عنك كل يوم بعد صلاة الصبح نصف ساعة في التجويد. فأجبته: إنني باق معك قرابة عشرة أيام فقط لأنقل إليك بعض الملاحظات التي عندي، ثم أعود إلى مزار الشريف. فأجاب: إنني أعرف لماذا جئت إلى هنا. أعرف ما يحصل في مزار الشريف بدقة. لقد ضُربتُ ضربة قوية جداً باغتيال ذبيح الله؛ الرجل القوي الذي كنا نعوّل عليه في تجييش الشعب هناك. لا تتصور حجم الضربة التي تلقيناها بخسارته.

ثم أخرج من عنده بعض الصور لذبيح الله، وقال لي إن الراحل زاره مراراً في بنجشير. وتابع: لست بعيداً عما يحصل في الجبهة. إنني متابع لما يجري فيها، بكبيرها وصغيرها. لكنني أعجب كيف أنك أنت العربي، صاحب الخبرة القليلة مع إخواننا في مزار الشريف، وصلت بهذه السرعة إلى ملاحظة حجم التنافس بين قادة المنطقة. فقلت له: إن ما لفت انتباهي إليك هو أنني سمعتهم جميعاً يتكلمون عنك بإعجاب وتقدير، فقلت لعلك تُساهم في حل المشكلة بفعل ما لديك من رصيد بينهم. هذا ما دفعني إلى القدوم إليك.

بعد ذلك، طلب مسعود من «السيّار» أن يرجع إلى النقطة الأولى التي استُقبلنا فيها. التفت إلى مسؤوله المالي وطلب منه أن يوقع على ورقة لكي يصرف بعض الأموال لـ «السيار». ثم نظر إليّ وقال: مكانك هنا، لن تغادر بعد الآن. ستعيش معنا، أو تستشهد معنا. مصيرك مصيرنا. وأضاف: يحز في نفسي أن العرب والمسلمين لا يأخذون قسطهم في هذا الجهاد المبارك، وأنهم يتخلون عن إخوانهم في أفغانستان. ليس عندنا عدد كبير من العرب. فليس هناك سوى أنت الآن بعد أبي عاصم. وهذا هو أحد الشبان الأكراد العراقيين كان معهم منذ فترة، وكان يدرّسهم القرآن.

ثم قال لي مسعود: لقد زارنا قبلك أحد الأخوة الأردنيين، جزاهم الله خيراً، لكنه لم يمكث، بل عاد إلى باكستان. أما أنت فآمل أن تبقى معنا هنا.

ولست أخفي سراً إذا قلت إنني كنت أُعجبت بمستوى الفرقة الأولى من المجاهدين، وبدأت أشعر بأنني أقرب إليهم من غيرهم. كنت أشعر بنفسي غريباً في المناطق الأخرى. أما الآن فبدأت أشعر بأنني قريب من عقلية هؤلاء الرجال. وعندما قابلت مسعود ورأيت جاذبيته وبساطته وتواضعه على رغم كل الهالة التي كنت أسمعها عنه في الولاية الأفغانية قبل وصولي إليه... قررت أن أبقى معه. وكان ذلك في أواخر عام ١٩٨٤.

الفصل الرابع

المجاهدون وهجوم الروس

تطورت علاقتي بأحمد شاه مسعود على مر الشهور. رأيت فيه قائداً فذاً يملك مشروعاً لكل أفغانستان. رأيت فيه الخير، وكنت أعتقد جازماً أن في استطاعته، بالتعاون مع قادة الجهاد الآخرين، هزيمة الروس وتحقيق مستقبل مشرق لبلده.

لاحظت منذ اللحظة الأولى للقائي به أنني أتحدث مع شخص غير عادي. قبل ذهابي إليه في سلطان شيرا، كنت التقيت بقائد قوات «الجمعية الإسلامية» مولوي محمد علم في مزار الشريف. لم أستطع سوى أن أُجري مقارنة بينهما. وجدت أن مولوي أمير مهم ويحظى باحترام في منطقته، لكن نشاطه محدود وكذلك برنامجه، إذا قورنا ببرنامج مسعود ونشاطه.

أخذت أُفكّر في الأمر. كنت أبيت، في طريقي من مزار الشريف إلى سلطان شيرا للقاء مسعود، في بيوت قادة المجاهدين، سواء من الجمعية أو الحزب الإسلامي. وكان العربي في ذلك الوقت محبوباً لدى الجميع. من خلال مروري على هؤلاء القادة كنت أُلاحظ أن الواحد لا يختلف عن الثاني. ما يشغل كلاً منهم هو منطقته التي هي محور مسؤوليته في إطار الجهاد في سبيل الله. كان نشاط هؤلاء القادة محصوراً بمناطقهم، سواء كانت قرية أو مديرية أو ولاية. ولكن عندما التقيت بمسعود وجدت أنني أتعامل مع شخص يُصدر التعليمات إلى كل القادة الذين مررت

عليهم، وكان على هؤلاء أن يُقدّموا إليه تقارير، مرة في الأسبوع على أقل تقدير، عن الأوضاع في مناطقهم. وجدت نفسي مع شخص لا يُتعامَل معه على أنه فقط «أمير بنجشير»، بل شخص يملك مشروعاً لأفغانستان كلها.

لا أعتقد أن النظرة التي كونتها عن أفغانستان كانت ستُتاح لي لو لم ألتق بمسعود وبقيت مع القادة المحليين الآخرين. صار لا يتغدى إلا في حضوري. فاتحني في شؤون عدة. حدّثني كيف بدأ الجهاد. أعطاني لمحة عن كل قائد، عن علاقته بحكمتيار في بيشاور وقبل ذلك في كابول. حدثني عن «المهندس حبيب الرحمن» ـ وكنت أسمع باسمه للمرة الأولى ـ وقال لي إن هذا الرجل لو بقي حيّاً لكان هو حاكم أفغانستان بلا منازع.

لا يمكن أن أتكلم على صفات مسعود ومناقبه وشخصيته، فهذا الأمر يتطلب مجلدات، ولا يمكنني أن أفيه حقه. كان قائداً عظيماً.

في اليوم الثالث لوجودي معه في مغارته الجبلية، جاءتني جماعة من قواته، قالوا لي: هناك عربي ثان موجود هنا أيضاً، ولكن في جبهة أخرى من جبهات مسعود. هو معنا منذ فترة طويلة ولم يرَ عربياً واحداً. لا شك في أنه سيفرح كثيراً برؤيتك. فقلت لهم «إنني فرح أكثر منه، فخذوني الآن إليه». ذهبنا سيراً على الثلوج قرابة أربع ساعات، ودخلنا مغارة فوجدته فيها مع أربعين مجاهداً يعلمهم على قراءة القرآن. كان يعطيهم كل يوم صباحاً ساعة تجويد في القرآن. سلّمت عليه وتعارفنا. هو كردي عراقي يدعى محمد أبو عاصم، ويتحدث الفارسية بطلاقة. وكان، رحمه الله، لقي الشهادة بعد شهرين من هذا اللقاء، وكنت ألمس الأثر الطيّب الذي تركه في نفوس المجاهدين

بقيت معه حتى العاشرة ليلاً، عندما سمعت الباب يدق. دخل شخص يدعى تاج الدين، وكان عمره آنذاك ٥٤ سنة ويعمل حارساً شخصياً لمسعود الذي تزوّج لاحقاً بابنته. وكان بدأ الجهاد مع مسعود من الطلقة الأولى في ١٩٧٩. وأذكر أنني أخبرت الشيخ عبد الله عزام لاحقاً

أن مسعود تزوّج من ابنة تاج الدين فعلّق قائلاً: مسعود الذي تتمناه أي فتاة في أفغانستان يتزوج بابنة حارسه! إن دل هذا على شيء فإنما يدل على تواضع الرجل.

أخبرني تاج الدين أن «الأمير ينتظرك». فقلت له: «الثلج أمتار في الخارج ونحن في عتمة الليل. لم تبق سوى ساعات قليلة على طلوع الفجر، فلننتظر قبل أن نتحرك». لكنه أصر على الانطلاق فوراً فـ «أمير صيب» يطلبني.

كان مسعود في مغارة تبعد عن مغارتنا قرابة ساعتين سيراً في هذه المنطقة الوعرة من جبال الهندوكوش. كانت له مغاور عدة يوزّع عليها مجموعاته التي تضم الواحدة منها نحو ٢٠ مجاهداً. ولكن كانت هناك مغارة أساسية تُعرف بـ «مغارة الإمارة» أو مركز القيادة، وكانت تضم خرائط وأجهزة اتصال لاسلكية. وكان يتنقل دوماً من مغارة إلى أخرى مع مجموعة خاصة من المقاتلين تلازمه أربعاً وعشرين ساعة في اليوم وتحمل معها العدة والعتاد. وكانت المجموعات الأخرى ثابتة في مراكزها ومغاورها. لكنه كان كثير التردد على مغارته الأساسية، «مغارة الإمارة»، إذ يزورها ما لا يقل عن ثلاث مرات في الأسبوع.

وصلت مع تاج الدين إلى مسعود، فطلب مني أن أعطيه نصف ساعة في التجويد كل صباح. كان يقرأ القرآن وأنا أُصحح مخارج الحروف. وهكذا استمر برنامج الدروس كل يوم، وكان يأتي مولوي غلام قاري بعد ذلك ويعطيه الدرس الديني لمدة ساعة. وبعد ذلك تأتي المجموعات اللاسلكية وتُقدّم إليه التقارير التي تتلقاها من الجبهات والمعلومات عن تحركات الروس في ممر سالانغ، وعن المواجهات مع الروس والشيوعيين. كان لديه ارتباط حتى بأشخاص داخل الحكومة الأفغانية يمدونه بمعلومات. وفي كثير من الأحيان كان يستطيع أن يرشي جنرالات الروس بالمال ويشتري منهم خطة تحرك قواتهم قبل أن تبدأ. حتى

إنه كان يشتري الرشاشات من الجنود الروس أنفسهم بثمن زهيد.

الشهور الثلاثة الأولى التي أمضيتها مع مسعود كانت رائعة. كنت أرى القادة العسكريين يتوافدون عليه من كل المناطق لتلقي التعليمات. وسمح لي وجودي إلى جانبه بالتعرف إلى معظم قادة الجهاد الأفغاني، حيث ربطتني بكثيرين منهم صداقة لا أزال أقدّرها حتى اليوم. وبما أنه كان يُنظر إليّ على أنني «العربي المفضّل عند الأمير»، فقد كان ذلك يعني أن كثيرين ظنّوا أنني «مفتاح لقب» أحمد شاه مسعود.

لكن وجودي مع مسعود في تلك الفترة أكّد لي أمراً كنت أشعر به منذ فترة؛ إذ لاحظت أن معظم زوار «أسد بنجشير» هم قادة حزبه؛ الجمعية الإسلامية، وبعض قادة الاتحاد الإسلامي (عبد رب الرسول سياف) والحركة الإسلامية (بقيادة محمد نبي). لم يكن بينهم قادة من الحزب الإسلامي التابع لقلب الدين حكمتيار. فلفت ذلك انتباهي. أدركت أن حكمتيار ومسعود هما الشخصيتان الأساسيتان اللتان يمكن أن تنتصر بهما أفغانستان أو تنكسر. ومن خلال السرد الذي تلاه عليّ مسعود في شأن صلته بحكمتيار منذ أيام كابول، قبل أن يهاجرا، وبعد هجرتهما إلى بيشاور إثر انكسار الجهاد أيام داود، وجدت أن للرجلين دوراً بارزاً في كل حلقة من حلقات الأزمة الأفغانية.

قلت لنفسي إنّ عليّ زيارة قادة حكمتيار في الشمال، إذ لا أستطيع أن أعود إلى بيشاور وأقدّم تقريراً إلى الشيخ عبد الله عزام وأقول فيه ما حصل خلال الشهور التي أمضيتها مع مسعود من دون أن أذكر شيئاً عن الحزب الإسلامي وقادته. كنت أعرف أن الشيخ سيسألني: بمن التقيت من قادة حكمتيار؟ ومعنى عدم لقائي بهم أنني لم أكن محايداً.

ذهبت إلى قائد الحزب الإسلامي «الإنجنير بشير»، وهو شُعلة إيمان وحيوية. جلست معه في منطقته في مديرية شكامش في ولاية تاخار، وكان أول ما قاله لي: تأتي إلى أفغانستان لتعيش مع «الغوركا» في جبال

الهندوكوش؟ انزل إلى هنا لترى الأسواق والناس. هل يأتي أحد إلى أفغانستان للعيش مع الذئاب بين الثلوج وفي مغاور الجبال مع مسعود؟ تعالَ إلى هنا. وكان يقصد أن آتى إلى هذه المناطق التي تضجّ بالحياة، والواقعة تحت نفوذ الحزب الإسلامي، في حين تركز نفوذ مسعود وقواته في الجبال النائية فقط. كان يتحدث مازحاً، لكنه كان يقصد كل كلمة. كان يريد القول إن المناطق التي تحت سيطرته مهمة، بينما مناطق مسعود ليست مأهولة، وهو يعلم أن نزول مسعود إلى القرى يعني تدميرها من قبل الروس. تعرّفت إليه، وبالفعل وجدته ثاقب الشخصية. لا أقارنه بشخصية مسعود، لكنه كان إنساناً ذكياً وكله توقّد وحيوية. وكان أصغر من مسعود في السن.

عدت إلى مسعود بعدما كوّنت صورة عن الوضع عن الحزب الإسلامي. فقال لي: «ها. رأيت الإنجنير بشير، أليس كذلك؟». قلت له: نعم. وقدّمت إليه الانطباعات التي تكوّنت لديّ، وقلت له: انه رجل كله حيوية، فلماذا لا تتصالح معه؟ فأجاب: أرغب في ذلك، فأقنعْه إذا كنت تستطيع.

لم يكن بإمكاني الانحياز إلى طرف من دون آخر، لأنني في الأصل مبعوث من «مكتب الخدمات» ولست رجل مسعود. وظيفتي هي سفير «مكتب الخدمات» في شمال أفغانستان، وبالتالي كان عليّ أن أحافظ على حيادي. فـ «مكتب الخدمات» مهمته في الأصل منع العرب من الدخول طرفاً في خلافات الأفغان. وعلى رغم صداقتي الكبيرة مع مسعود ومحبتي له، إلا أنه لم يكن بإمكاني الانحياز إليه. وكان بالفعل رجلاً عظيماً، إذ لم يحاول أن يستغل علاقتي به للتأثير على موقفي. وأنا أفرق بين حب الرموز وذكر مناقبهم، وبين تبنّي مواقفهم تجاه أندادهم ومنافسيهم.

عرفت أن التقريب بين الجمعية الإسلامية والحزب الإسلامي أكبر مني، ويتطلب تحضيراً جيداً إذا أُريد له النجاح. ولكن قبل أن أبدأ تحركي في هذا الشأن، طرأ أمر آخر أكثر إلحاحاً: كان الوقت صبحاً، وبدأنا

كعادتنا بدرس التجويد. ولكن لم تمر لحظات حتى راحت القنابل تنهال علينا من كل حدب وصوب. تركّز القصف على مساحة عشرة كيلومترات مربعة تنتشر فيها مغاور مسعود في سلسلة جبال الهندوكوش في سلطان شيرا. اتصل مسعود باللاسلكي ليعرف ماذا يحصل، فقيل له إن الروس يشنون عملية مباغتة.

توقفت القنابل فجأة. ولكن بعد عشر دقائق وصل سرب جديد من طائرات «السوخوي ٢٥» وبدأ يدك المنطقة دكّاً. بعد نصف ساعة، وصل سرب ثالث، وأفرغت طائراته ما في بطنها من قنابل. لم يكن في استطاعتنا التحرك. كانت الطائرات تصل فوق سماء المنطقة بأسراب يضم الواحد منها ما لا يقل عن عشر طائرات تتولى الإغارة على مواقعنا بكثافة رهيبة. فأيقن مسعود أن الروس يُحضّرون لحملة شرسة بعد انتهاء القصف الجوي. بدأ يتصل باللاسلكي من داخل مغارته. أمر المجاهدين بأن يتسلقوا فوراً قمم الجبال التي لم يكن يقل علوّها عن ستة آلاف متر ويصل بعضها إلى أكثر من سبعة آلاف متر. كان يريدهم أن يصعدوا إلى القمم لمنع حصول أي إنزال روسي محتمل. كان يريدهم أن يُفاجئوا الروس قبل أن يفاجئونا. فالهليكوبتر يمكنها أن تنزل في مساحة لا تتجاوز عشرين إلى ثلاثين متراً، ولو استطاع المجاهدون المسلحون بقاذفات الـ «آر بي جي» الوصول إلى القمم قبل الروس، فإنهم سيتمكنون من تعطيل أي عملية إنزال جوي.

صعد المجاهدون فعلاً إلى قمم الجبال. لكن الحملة الجوية استمرت على حدتها. كان يفصل بين السرب والسرب ساعة أو نصف ساعة. وظلت طائرات «السوخوي» تدك المنطقة فترة أربعة عشر يوماً، مما أحدث ارتباكاً شديداً في صفوف قوات مسعود، حتى أننا لم يعد بمستطاعنا الخروج للوضوء. كان يفصل باب المغارة عن النهر خمسين إلى ستين متراً، وهي في بطن الجبل، ولم يكن بإمكاننا الهبوط منها إلى أسفل الوادي للوصول إلى النهر. كانت شظايا الصواريخ تسقط في الوادي وتتطاير عند

سفوح الجبال الصخرية لكنها تتوقف عند مدخل المغارة. كنا محميين في داخلها. لكن لون الجبال المحيطة بنا صار ناصع البياض. كانت صخوره كالثلج، بعدما «نظّفتها» شظايا القنابل.

ظللنا في هذا الجحيم أربعة عشر يوماً، من صلاة الصبح إلى صلاة المغرب. أُنهكت قوات مسعود. لكن المشكلة الكبرى هي التي واجهت القوات التي صعدت إلى قمم الجبال. ففي الأيام الأولى كان يمكن المجازفة بإرسال الطعام إليهم. لكن ذلك لم يعد ممكناً بعد اليوم الرابع. إذ لم يعد أحد قادراً على التحرك من مكانه. وكان الروس يركّزون قصفهم على النقطة التي يتمركز فيها مسعود. فانقطع الاتصال بالشبان فوق رؤوس الجبال. كانوا أربع كتائب تضم كل واحدة منها ما بين خمسة عشر إلى عشرين رجلاً. أذكر بينها كتيبة سيّد يحيى، رحمه الله، الذي استشهد في فتح خوجه غار على يد مدفعية دوستم سنة ١٩٩٠، وكتيبة الكومونداان مسلم، وكتيبة بناه، رحمه الله. انقطع الطعام عنهم تسعة أيام أمضوها يأكلون العشب وينتظرون وصول الروس. كانوا يعرفون أن كل هذا القصف إنما هو للتمهيد للإنزال.

لم تكن هذه المجموعات من المجاهدين، هي كل قوات مسعود. إذ إن مركز قوته الأساسي في وادي بنجشير حيث تتبعه قوة تضم آلافاً عدة من المقاتلين. وقد خرج من بنجشير لتخفيف الوطأة عن المنطقة بعدما أعلن الروس «عمليتهم الشرسة» لتصفية المقاومة فيها. أخرج معه نحو مئة وخمسين مقاتلاً من النخبة، ولجأ إلى مغاور سلطان شيرا. ويبدو أن الروس علموا، بعد ثلاثة أشهر من الدعايات والإشاعات عن اختفائه، أنه مختبئ في سلطان شيرا فقرروا هجوماً مباغتاً على معقله في عام ١٩٨٤.

... وبدأ الإنـزال

كان اعتمادنا على القوات المتمركزة فوق قمم الجبال، وهمنا ضمان عدم أسر مسعود. فلو استطاع الروس إنزال قواتهم على قمم الجبال فإن

ذلك سيعني أننا صرنا محاصَرين. ظللنا على هذا الوضع أربعة عشر يوماً. في اليوم الخامس عشر توقف القصف الجوي. ثم بدأنا نسمع هدير المروحيات. كانت تقترب منا. نظرنا من مغارتنا فرأينا الروس ينزلون على قمة الجبل المقابل الذي لا يبعد عنا أكثر من كيلومترين. كانت مهمة مجموعة سيد يحيى التصدي لهم. وصل الكوماندوس تحمله مروحيات عسكرية. كانوا يعتقدون أنهم سيحتلون الوادي كله من دون خسارة بعد القصف الجوي طوال الأيام الأربعة عشر الماضية. لكنهم لم يتوقعوا أن يصبر الشباب فوق رؤوس الجبال كل هذه الفترة. لا بد من أنهم تساءلوا: كيف يُعقل أنهم ما زالوا أحياء بعد كل هذه الأطنان من القنابل التي ألقوها عليهم؟ لكن المجاهدين كانوا سالمين على رؤوس الجبال، فالروس دكّوا بقنابلهم بطن الوادي فقط.

اقتربت قوة الكوماندوس من الجبل تُقلّها ثلاث طائرات. وما أن بدأت بإنزال العسكرين حتى اندلعت المواجهة مع المجاهدين الذين استطاعوا إسقاطها في الدقائق العشر الأولى من المعركة. ضربوها بصواريخ «آر. بي. جي». فظن الروس عندها أن قمم الجبال كلها المحيطة بمكان الإنزال تعج بالمجاهدين، فانسحبوا إلى الجبال الواقعة خلفنا وأنزلوا الكوماندوس هناك. وتحولت المعركة من الطائرات إلى المدفعية.

كان الروس مهّدوا لمعركة سلطان شيرا بدخول مديرية شكاميش القريبة. نصبوا فيها مدفعيتهم وأطلقوا لها العنان في اتجاه منطقة مسعود التي تبعد أقل من خمسين كلم. أطلقوا وابلاً رهيباً من الصواريخ، لكنهم لم يستطيعوا التقدم. واصلوا القصف أربعة أيام أخرى. عندها أيقن مسعود من أنه مُستهدَف. فقرر الانسحاب إلى منطقة أخرى. باشرنا الانسحاب ليلاً في اتجاه منطقة فارخار. وبما أنه أصرّ على عدم ترك أثر يسمح للورس بتعقّبنا، لم يكن أمامنا سوى السير في وسط النهر الذي يفصل ما بين الجبال الشاهقة. حملنا كل شيء معنا، ولم تبق وراءنا سوى

قوات قليلة تؤخر تقدم الروس. وكان علينا أن ننقل معنا ليس أمتعتنا وأسلحتنا والذخائر فقط، بل ننقل أيضاً الأسرى الذين كان مسعود يحتجزهم. إذ إنه كان أحضرهم معه إلى سلطان شيرا عندما اشتد عليه ضغط الروس في بنجشير. لم يكن أنهى محاكمتهم عندما بدأ الهجوم الجديد على سلطان شيرا، فأمر بجلب الأسرى معنا خلال عملية الانسحاب، وأفرد لهم ما لا يقل عن عشرين مقاتلاً لحراستهم وتأمين حمايتهم خشية استغلالهم الارتباك الذي تُحدثه العملية الروسية فيفرون. كلّف بهم القائد محمد سيد خان وقال له: يجب أن يبقى هؤلاء آمنين في أي ظرف. لم ينته التحقيق معهم ولم نحصل بعد على المعلومات منهم، ولذلك أُكلّفك بضمان أمنهم وسلامتهم. عليك أن توصلهم إلى تاخار، وتجد مكاناً آمناً لهم. فرد محمد سيد خان: هذه وظيفتي ولا تهتم بها. اذهبْ ودبّر رأسك واخرجْ من المنطقة قبل وصول الروس. انطلق مسعود مع قواته التي كانت أصلاً معه في «مغارة الإمارة». كنا نمشي في وسط النهر، والماء يصل إلى ما فوق الركبة. لم يكن بوسعنا السير سوى في وسط النهر وفي الليل فقط. مشينا في واحدة من هذه الليالي طوال سبع ساعات حتى وصلنا إلى منطقة مع طلوع الفجر. فتح مسعود عند ذاك خيمته، وقرر النوم في ذلك الموقع. كنا نحو مئة، وبيننا جرحى ومرضى. كُنّا في حال يرثى لها، ومنهكين بعدما حملنا أمتعتنا وسرنا كل هذه المسافة. بعض الشباب أصرّ على حمل كل العتاد الذي كنا نملكه فلا يُترك للروس. حمل هؤلاء الصواريخ على ظهورهم. كثيرون منهم حملوا فوق طاقتهم. لذلك، ما أن توقفت القافلة وفتح مسعود خيمته للمبيت حتى ارتمى المقاتلون، ووضعوا رؤوسهم فوق أي صخرة وجدوها وحاولوا النوم.

كانت المنطقة صخرية، أشبه بحفرة في الأرض تُحيط بها الجبال من كل مكان. لذلك، اعتقدنا أن المكان محمي جيداً، لأن الصواريخ ستصطدم بالجبال الأعلى منا ولن تصل إلينا في حفرتنا في أسفل الوادي.

المطاردة والشهداء

لم ننم ساعة، وكنت إلى جانب مسعود في خيمته، وهي لنفرين فقط، حتى بدأ وابل من الصواريخ ينزل علينا كالمطر في عمق الحفرة. وفي أقل من خمس دقائق سقط لنا أكثر من عشرة شهداء. تناثرت أشلاء جثثهم على الصخور التي تخضّبت بالدماء. كان منظراً لا يُمكن تخيّله. ويبدو أن قوات الكوماندوس التي كانت تلاحقنا من قمم الجبال الخلفية حددت مكاننا بدقة. لم تستطع قطع الطريق الأمامية علينا لأن قوات مسعود كانت متمركزة على القمم، فتوجهت إلى سلسلة الجبال المقابلة وكانت تعطي التعليمات عن تحركنا من بعيد.

أصابتنا الصواريخ في وسطنا. احترنا أين ندفن الشهداء. فالمنطقة ليست ترابية لنحفر الأرض وندفنهم. المنطقة كلها صخور. جمعنا القتلى في مكان واحد ووضعنا فوقهم الصخور، وواصلنا الانسحاب في اتجاه فارخار، وهي مديرية تابعة لولاية تاخار.

وصلنا إليها منهكين بعد سبعة أيام من السير. لكننا وجدنا أنفسنا أمام مشكلة جديدة. فالمر عبر الجبل الأخير الذي يفصلنا عن فارخار يقع في يد الحزب الإسلامي المختلف مع مسعود. لكن موقف المسؤولين عن الحزب كان رجولياً. فعلى رغم كل الخلافات بينهم، عرفوا أن مسعود تلقى ضربة من الروس وأنه منهك مع قواته بعد أسبوع من الفرار، فوافق قائد الحزب الإسلامي على السماح له بعبور منطقته مع مجموعاته. عبر مسعود فارخار ونزل عند أحد القادة التابعين للجمعية الإسلامية. بعد انسحاب مسعود من سلطان شيرا دخلها الروس واحتلوها. لكن عمليتهم كانت سياسية أكثر منها عسكرية. فالمنطقة لم تكن تعني شيئاً أصلاً لمسعود، وهو لم يلجأ إليها سوى لتخفيف الضغط عن معقله في بنجشير. احتل الروس المنطقة لبضعة أيام. تجوّلوا في شعابها التي كانت مخابئ لقوات مسعود، وتعرّفوا إلى طريقة ترتيبه مغاوره، ثم غادروا.

بعد الانسحاب من سلطان شيرا، وجد مسعود نفسه محاصَراً. فالروس يضربون بنجشير بقوة في عمليتهم الضخمة لإنهاء المقاومة. وسلطان شيرا؛ نقطته الخلفية التي لجأ إليها طوال أربعة أشهر، فقدها أيضاً. وهو لا يستطيع الانسحاب في اتجاه باكستان، لأنها بعيدة جداً. وفي فارخار، كان آمناً بين مجاهدي الجمعية الإسلامية، لكن ولاء هؤلاء ليس له. فما يربطه بهم هو انتماؤهم جميعاً إلى الجمعية الإسلامية بقيادة برهان الدين رباني. لكنهم ليسوا بنشيريين، ولا يستطيع بالتالي أن يأمر وينهي فيهم، مثلما يفعل بين أبناء منطقته في بنجشير. فرأى أنه لا بد له من استعادة الاعتبار وكسب المنطقة إلى صفه. فقرر مع أحد أعيان المنطقة ويدعى عبد الله كازستان؛ قائد الجمعية في المنطقة، وسيد هاشمي، مهاجمة مديرية فارخار وفتحها.

وفي خلال أربعة أيام، جمع مسعود القادة وقرر شن هجوم مباغت على مركز المديرية. كان يريد استغلال عامل الوقت، فالقوات الروسية والشيوعية المتحالفة معها مشغولة في سلطان شيرا. هاجم مسعود مركز المدينة، وفي خلال خمس ساعات سقط في يديه مئة وخمسون أسيراً وفتح المنطقة واستولى على غنائم كبيرة، وحقق له ذلك رصيداً بين سكان المنطقة الذين يفتخرون بهذا الإنجاز الذي حققه لهم.

العودة إلى بيشاور

بعد نحو أربعة أيام، تركتهم منشغلين بهمومهم، وقررت العودة إلى بيشاور. فقد رأيت أموراً كثيرة وصرت على علاقة وثيقة بمسعود، فأردت أن أعود إلى بيشاور لإبلاغ الشيخ عبد الله عزام بالتطورات.

أبلغت مسعود قراري فوافق، لكنه رجاني ألا أطيل البقاء هناك لأكثر من شهر. رجعت إلى بيشاور، لكنني كنت أعرف أن ما سأنقله إلى الشيخ عزّام سيكون مختلفاً عما نقلته في المرات السابقة. كنت أريد شرح بعض الأمور المتعلقة بمسعود والتي لا يعرفها العرب. كنت أريد التحدث عن

الحساسية الكبيرة بين الحزب الإسلامي والجمعية الإسلامية، وأنه لو تم إصلاح ذات البين بين الحزبين فستنتهي المشاكل في أفغانستان. كان حكمتيار يدير من بيشاور كل صغيرة وكبيرة في أفغانستان، وله صلة مباشرة بقادته في الداخل، وسلطة مطلقة على شؤون حزبه. وكان لمسعود الأمر ذاته... وقدرته العسكرية والإدارية ورحابة صدره وقدرته على جمع الناس من حوله. كل هذه الصورة كانت غائبة عنه في بيشاور. لذلك، أردت أن أسعى لدى الشيخ عزّام ليجمع الرجلين علّ ذلك يوحّد قوة المجاهدين.

الفصل الخامس

العرب في جبهات مسعود

تركت أحمد شاه مسعود في مديرية فارخار، في ولاية تاخار، ونزلت إلى بيشاور، وكان ذلك في بداية ١٩٨٦. نقلت مشاهداتي إلى الشيخ عبد الله عزّام، رحمة الله عليه، فارتفعت معنوياته. كان يعرف قلب الدين حكمتيار وقدراته الإدارية والقيادية، وهو فعلاً رجل غير عادي. لكنه لم يكن يعرف الكثير عن أحمد شاه مسعود وقدراته. ويبدو أنه اقتنع بالهدف الذي جئت من أجله، وهو العمل على جمع الرجلين.

كان الشيخ عبد الله مُحترماً جداً وكلامه لا يُرَدّ عند زعماء المجاهدين، وبينهم حكمتيار، في بيشاور. وكنت أعرف أن مسعود يقدّرني ولن يرد طلبي أن يجتمع مع قائد الحزب الإسلامي.

قمت ببعض المحاضرات في بيشاور وفي «مكتب الخدمات»، وكان عدد الشباب العرب قد ارتفع كثيراً. كانت المدينة تعجّ بهم. لكن هدفي الأساسي كان العمل على جمع حكمتيار ومسعود. فقال لي الشيخ عبد الله: ما المطلوب مني؟ فقلت: أن تركّز على جمعهما، فأكثر الخلافات داخل أفغانستان بينهما، وأكثر الفتوحات الممكن أن تتم هي في حال اتفاقهما.

اقتنع الشيخ. كان يعرف حكمتيار، لكن صورة مسعود لم تكن واضحة عنده. كان يعرف انه مجاهد، كبقية قادة المجاهدين. لكنني قلت له

إنه ليس مجرد قائد ميداني، بل هو أبرز القادة ويحظى باحترامهم جميعاً. كان يُقال للشيخ إن مسعود مثل القادة الميدانيين، كإسماعيل خان وجلال الدين حقاني وذبيح الله الشهيد وعبد الصبور فريد (رئيس الحكومة الأفغانية، ممثل حكمتيار في حكومة برهان الدين رباني).

استوعب الشيخ عبد الله الصورة بسرعة. قال: لا بد من أن تأخذ معك مجموعة من الشباب، على أساس أن يتوزّعوا معك في داخل أفغانستان للتقريب بين «الإنجينير بشير» (الحزب الإسلامي) و«الإنجينير مسعود» (الجمعية الإسلامية). اختار الشيخ عبد الله بعض أفراد المجموعة، وقال: إنهم من بين خيرة الشباب والدعاة الناضجين والمثقفين الذين نملكهم في بيشاور. خذهم معك إلى الشمال وكن أميرهم. إذ كان الشيخ عبد الله عيّنني أميراً للعرب في شمال أفغانستان. وأذكر هنا موقفاً مُضحكاً، إذ زارنا مرة صحافي ياباني كان كثير التردد على مسعود ويزور أفغانستان ما لا يقل عن أربع مرات في السنة. كنت جالساً وسط مجموعة صغيرة من العرب وكانوا ينادونني بـ «الأمير». فتعجّب الياباني، وسألني: أمير على من؟ فقلت له: أمير على هؤلاء العباد الخمسة الجالسين أمامك. أما الأمير الحقيقي فهو الجالس هناك (مسعود).

في أي حال، قال الشيخ عبد الله: خذ معك هذه المجموعة واذهب إلى أفغانستان. كانت مهمتها التالي: عبد الله أنس يقضي معظم وقته مع مسعود. وعلى رغم أنه ليست لديه خلافات مع الحزب الإسلامي، لكنه في النهاية يبقى محسوباً على مسعود. وبالتالي فإن الرسالة التي يمكن أن ينقلها قد لا تكون مقبولة مئة في المئة عند الطرف الآخر في الحزب الإسلامي. لا بد من أن تأتي مجموعة من الشباب العرب الأوفياء وتنغرس إلى جانب مسؤول هذا الحزب «الإنجينير بشير» وتصير مهمتها الاهتمام به. وعلى هذه المجموعة أن تُبلغه أنها موفدة من الشيخ عبد الله عزام لتقديم أي مساعدة يحتاج إليها. يجب أن تنبني صداقة بينهم وبينه، وهذا أمر لا يحصل في يوم أو يومين، بل يحتاج إلى وقت طويل لتعميق الثقة.

إلى شمال أفغانستان

حضّرنا قافلة جديدة انطلقت من بيشاور إلى شمال أفغانستان. أحد أفراد المجموعة، قاري إبراهيم، العراقي، حافظ للقرآن ومهندس، وقد أُمِّر على مجموعته المفصولة مع الحزب الإسلامي. قلنا له: اذهبْ بمجموعتك إلى المهندس بشير، ووظيفتك الاهتمام به. تكفَّلْ بكل ما يريده، من الاهتمام بأيتام مجموعته إلى الجرحى والأرامل والخدمات الصحية والتعليم والتربية.

وكل هذا هدفه أن نفرض احترامنا عند بشير لكي نقول كلمتنا في الجمع بين الحزب والجمعية. وهذا لا يمكن أن يُقال من دون رصيد عنده. فأنا أصلاً علاقتي جيدة بمسعود، وكنا نريد رجلاً عربياً في الضفة المقابلة يملك الميزة نفسها. لم نكن نريد أن ينظر القائد الأفغاني إلينا كمصدر رزق له ولمجموعته فقط، بل نريد تعميق الصداقة معه، لنستطيع تقريب وجهات النظر بينه وبين قادة الجمعية الإسلامية. ونقل قاري إبراهيم إلى المهندس بشير رسالة من قلب الدين حكمتيار يُبلغه فيها أن «مكتب الخدمات» انتخب له مجموعة من خيرة الشباب الموجودين في بيشاور من أصحاب العلم ليكونوا في خدمته.

وكان إرسال قاري إبراهيم إلى المهندس بشير على خلفية حادثة سمعتها منه في إحدى المرات في شكامش، إذ عاتبني على أمر ما. والقصة هي أن الأفغان ينظرون بمذمة إلى الرجل إن تبوّل واقفاً. وهي عادة مذمومة، لكنها في أفغانستان مذمومة جداً. وكان مع المهندس بشير مجاهد جزائري فرنسي، لم يكن، للأسف، بمستوى الرسالة. فقال لي المهندس بشير: أنت تذهب إلى عند مسعود وتُرسلون إليّ الناس الذين يتبوّلون واقفين!

عندما نقلت هذه الصورة إلى الشيخ عبد الله في بيشاور قال لي أن

آخذ معي إلى أفغانستان أكثر الشباب نضجاً. وكان على رأس هؤلاء قاري إبراهيم العراقي الذي مكث فترة مع سيد جمال. ولكن للأسف لم تنجح مهمته، ليس لنقص فيه ولكن لظروف خارجة عن نطاقه.

إذ إن المهندس بشير دخل في معركة إعلامية كبيرة ضد أحد منافسيه من قادة حكمتيار في المنطقة وهو السيد جمال. وكان كل منهما يتبع لحكمتيار، ويتمتع بحجم ثقيل في المنطقة. وقد قضى قاري إبراهيم كل وقته في التقريب بينهما، ولكن من دون جدوى.

وأدى انشغاله بإصلاح ذات البين داخل الحزب الإسلامي نفسه، إلى عدم تقدم الجهود لجمع الحزب مع الجمعية الإسلامية.

المجموعة التي أرسلناها من بيشاور إلى المهندس بشير كانت جزءاً من مشروعنا في شمال أفغانستان. إذ إن الجزء الثاني منه كان يتمثّل في إرسال مجموعة ثانية من العرب لتنخرط في صفوف قوات مسعود أيضاً. وهؤلاء يجب أن يكونوا أيضاً من قرّاء القرآن والدعاة الواعين.

خلال جمعي أفراد هذه المجموعة في بيشاور، جاءني قاري سعيد[1] وقال: إذا لم تأخذني معك إلى الشمال فسأترك هذا الجهاد لأنني مللت من بيشاور. وإذا تركت الجهاد فإنك المسؤول أمام الله. إن مسؤولية تركي الساحة تقع عليك.

فأخذته معي بغير اقتناع. فأنا لا أعرفه، ولست متأكداً هل هو الرجل المناسب للمهمة، أم لا. كنت أخشى أن آخذ الشخص الخطأ فيخرّب ما بنيته هناك. لكنني قلت لنفسي: بما أنني لم أجرّبه، فلا يمكنني أن أقدح فيه أو أمتدحه. وبما أنه حمّلني هذه المسؤولية أمام الله،

(١) حصل اللقاء مع قاري سعيد قبل أن يخرج عليّ ويلتحق بالقاعد ثم بالـ G.I.A.
وقاري سعيد جزائري من «الأفغان العرب»، ويُعتبر أحد مؤسسي «الجماعة الإسلامية المسلحة».

فسآخذه. وطلبت منه أن يُحضِّر نفسه للانطلاق إلى شمال أفغانستان بعد خمسة عشر يوماً.

ومن بين الذين جاؤوا أيضاً للذهاب معي في هذه الرحلة «أبو عبيدة البنشيري»[٢] و«أبو حفص المصري» الذي كان مسؤول «القاعدة» حتى اغتياله، و«أبو دجانة المصري» رحمهم الله. قالوا لي: نريد أن نذهب معك أيضاً إلى الشمال، ونحن فلان وفلان وفلان من جماعة الجهاد المصرية. فأخبرتهم أنني آخذهم معي ولكن بعد أن أحصل على تعهد خاص منهم. قلت لهم: أنتم تقولون إننا من «جماعة الجهاد»، وشرطي هو أن أي إنسان يدخل إلى أرض أفغانستان يجب أن يضع نفسه تحت إمرة قائد أفغاني. لا يجب أن ندخل ببُعدنا التنظيمي. تفضلوا إن كنتم تريدون أن تدخلوا كأفراد تحت إمرة مسعود وتأتمرون بأمره حيث وجّهكم. أما إذا كان عندكم برنامج آخر على أساس أنكم من «جماعة الجهاد» وتريدون أن تدخلوا لتفعلوا شيئاً آخر، فالرجاء أن تقولوا لي هذا منذ البدء قبل دخولكم لئلا يُسبب ذلك إحراجاً لي. فقالوا: نعاهدك أننا ندخل كأفراد تحت إمرة مسعود. ونحن تحت أمره يفعل بنا ما يشاء. فوافقت حينها على أن يذهبوا معي.

جُمعت القافلة وكانت تضم نحو ثلاثين عربياً (من بين الأفغان). دخلنا إلى أفغانستان عبر طريق تختلف عن الطريق التي سلكتها المجموعة التي ذهبت إلى المهندس بشير، مسؤول الحزب الإسلامي. سرنا في طريقين مختلفتين. القافلة المتوجهة إلى الحزب الإسلامي مرّت في مناطق شرق أفغانستان، في حين أن قافلتي إلى الجمعية الإسلامية مرّت في شمال البلاد. سرنا عبر شترال لنقطع ثمانية جبال، علوّ الواحد منها ثمانية آلاف متر، قبل الوصول إلى مناطق مسعود. وشاءت الأقدار أن المجموعة التي كانت معي صار بعض أفرادها معروفاً جداً، مثل «أبو حفص» و«أبو

---

(٢) «أبو عبيدة البنشيري» (علي أمين الرشيدي)، أحد مؤسسي تنظيم «القاعدة». غرق في بحيرة فيكتوريا (تنزانيا) في ربيع ١٩٩٦.

عبيدة» الذي لم يكن حتى ذلك الوقت يُعرف بـ «البنشيري».

وبما أن «أبو حفص» كان يعاني أصلاً ألماً في غضروف ركبته، فإنه لم يستطع صعود الجبال الشاهقة في المنطقة، فلم يُكمل الرحلة ورجع إلى بيشاور. وبعث من هناك رسالة تحدث فيها عن مرضه. لكن «أبو عبيدة» و«أبو دجانة» واصلا الرحلة.

عرّفت مسعود إلى الشباب العرب، وكنت أتولى الترجمة. فأكرمهم وأكبرّ فيهم غيرتهم على الدين، وأظهر لهم تقديراً فائقاً. كان مسعود يُحضّر لعملية لفتح مديرية النهرين. كان عليه أن يتحرك من فارخار التي تركتُه فيها بعدما فتحها، إلى مديرية أخرى هي مديرية النهرين في ولاية باغلان الخاضعة للحكم الشيوعي. وكان مسعود أصلاً يُرتّب للعملية منذ فترة، وصادف قراره بدءَ الهجوم مع وصولنا. كان مسعود لا يُحب المناوشات العسكرية وحرب الاستنزاف. فقد يبقى خمسة شهور من دون هجوم واحد. يقضي وقته في التخطيط والتنظيم ودرس مواقع العدو والأسلحة التي يملكها، ثم ينقضّ عليه في هجوم واحد يدوم ساعات ويحسم المعركة لمصلحته. وهذا الأسلوب في القتال لم يكن معروفاً في بقية أفغانستان حيث كانت الحرب أشبه بحرب استنزاف: خط للمجاهدين يقابله خط للعدو، يتبادلان القصف سنوات. وهذا ما كان عليه الحال في جلال آباد وخوست وغارديس ولوغر ووردغ. لكن حرب مسعود كانت تختلف: تخطيط طويل وهجوم مُباغت.

انتحى مسعود بي ليلاً وأبلغني أنه يستعد لفتح مديرية النهرين. كنّا في غرفته الخاصة. جلس كل منا في فراش النوم الخاص به، وكان معنا الحارس الذي أصفه بأنه «شنطة أفغانستان»، إذ يظل حاملاً خرائط مسعود على ظهره ويرافقه من مكان إلى آخر. قال لي: «الأمر سري. سنهاجم مديرية النهرين بعد يومين أو ثلاثة. سننتقل من هنا في تاخار إلى النهرين، في مسيرة يومين. فإذا كان إخوانك العرب ينوون أن ينالوا شرف المعركة

وأرادوا المشاركة في المعركة فلهم ذلك».

ذهبت إليهم في اليوم التالي، إذ كانوا في نقطة غير النقطة التي كنت فيها مع مسعود. أخبرتهم بالعملية وان مسعود يخيّركم إما أن تبقوا هنا في المعسكر أو تذهبوا معه. فبدأوا بالتكبير، قائلين: كيف نبقى هنا؟ فنحن جئنا من أجل هذا الهدف.

معركـة النهريـن

ساروا معنا إلى المعركة من دون أن يعرفوا كم تبعد المنطقة التي سيهاجمها مسعود. وعندما اقتربنا من المنطقة وصرنا في شعبة من شعب الجبال القريبة من النهرين، على بُعد نحو سبعمئة متر منها، بدأ مسعود يوزّع المجاهدين وكانوا قرابة ثلاثمئة، بالإضافة إلى الإخوة العرب الذين قرروا المشاركة وكان عددهم في حدود خمسة عشر شخصاً. فبقية العرب لم يكونوا مقاتلين، بل من الأطباء والمعلمين. فبقوا في المنطقة الأولى ولم يُشاركوا في المعركة.

قال «أبو عبيدة» و«أبو دجانة» إنهما سيشاركان في المعركة، وهي كانت الأولى التي استغرقت من مسعود يوماً وليلة كاملين. فمعاركه السابقة واللاحقة التي حضرتها معه، كانت خاطفة لا تستغرق سوى ساعات. لكن المقاومة في مديرية النهرين كانت شديدة، واستشهد في هذه المعركة ثمانية عشر مجاهداً بينهم أربعة عرب، منهم أبو دجانة وعبد الجبّار رحمهما الله، وجُرح «أبو عبيدة». وفي اليوم التالي لبدء المعركة حصل الفتح الكامل ودخل مسعود المديرية آسراً ثلاثمئة من قوات العدو.

بقي العرب فترة دامت قرابة شهر ونصف شهر مع مقاتلي مسعود، قبل أن يُقرروا العودة إلى بيشاور. فعاد «أبو عبيدة» الجريح وعدد آخر من العرب إلى باكستان لتلقّي العلاج، وأُطلق عليه منذ ذلك الوقت لقب «البنشيري» لمشاركته في معركة النهرين.

لم أغادر مع القافلة إلى باكستان. فوظيفتي الأساسية أن أبقى في المنطقة مع مسعود. وكنت كل يوم أقضيه معه أزداد اقتناعاً بضرورة جمعه مع حكمتيار؛ أي بالحزب الإسلامي.

رجعت بعد تسعة شهور إلى بيشاور مع بقية المجموعة العربية التي كانت معي. وهناك ركّزت مع الشيخ عبد الله عزّام على ضرورة حصول لقاء بين مسعود وحكمتيار. ففي الأيام الأخيرة كان ذلك همّي. كنت أرى سهولة تنفيذ عمليات ضد مراكز الروس والشيوعيين، وهو ما كان يقوم به الحزب الإسلامي والجمعية الإسلامية، كل في مناطقه. لكن ما كان يستنزف الجهاد هو الخلاف المستحكم بينهما. فالطريق التي تحتاج إلى ساعتين لقطعها تأخذ أحياناً يومين كاملين لأنك مضطر إلى أن تقوم بعملية التفاف كبيرة لتفادي مناطق وجود الحزب المنافس لك. فكانت نتيجة عدم التفاهم الداخلي هذا، استنزافاً رهيباً لطاقات المجاهدين من كلا الطرفين. وكان الروس والشيوعيون في كابول يغذّون ذلك التنافس.

صـراع المجاهديـن

وكاد الخلاف بين المجاهدين يتطور في إحدى المرات إلى معركة كبيرة جداً. ولو لم يُسخّرنا الله، عز وجل، لإطفاء النار، لكان قُتل فيها الآلاف. كان ذلك بعد انتهاء معركة النهرين ببضعة شهور. فقد كنت أجلس مع مسعود في وادي سلطان شيرا عندما اتصل به القائد إكرام الدين باللاسلكي. طلب من مسعود أن يرسلني إلى منطقة شكامش المأهولة والتي يتقاسم حكمها هذا القائد، إكرام الدين، والمهندس بشير قائد الحزب الإسلامي.

طلب إكرام الدين أن أجيء إليه في أقرب وقت ممكن، «فقد حصلت كارثة بيننا وبين الحزب الإسلامي». أرسلني مسعود إلى شكامش، وهناك قابلت القائد إكرام الدين الذي أوضح أن من وصفه بـ «المجنون» عبد الجبار، أخي القاضي إسلام الدين أحد قادة الجمعية الكبار، قتل

«الإنجينير عبد الوهاب» مسؤول شكامش في الحزب الإسلامي. وأضاف أن المهندس بشير، قائد الحزب الإسلامي في الشمال الأفغاني، يريد الانتقام لعبد الوهاب، و«أعلن حال الاستنفار في صفوف حزبه. وقد وصل إلى شكامش ما يقرب من ثلاثة آلاف منهم. وإذا حصلت معركة بيننا وبينهم فإنها لن تنتهي في شهرين». وأضاف: لسنا نعرف ما نفعل بهذا المجنون الذي قام بهذا العمل. هل يمكن أن تتوسط في القضية؟

فقلت له إن المهمة صعبة، وقبل أن أفعل أي شيء أريد أن أعرف حقيقة ما حصل. فشرح لي ما حصل، وقال إن قادة الجمعية آسفون بالفعل لمقتل عبد الوهاب. فقلت له إنني سأذهب إلى المهندس بشير. بين المنطقة التي التقيت فيها بالقائد إكرام الدين والمنطقة التي يقع فيها مركز قيادة المهندس بشير، ست ساعات سيراً. وهي منطقة سهلية، وفيها حد فاصل بين قوات الجمعية وقوات الحزب الإسلامي. وكانت الذبابة في ذلك الوقت لا تستطيع قطع الحد الفاصل بينهما لشدة التوتر بين الطرفين. ولم تكن تحت تصرفي طائرة هليكوبتر أطير بها من عند هذا الطرف إلى ذاك. وكان المقاتلون يترصدون من فوق سطوح البيوت والتلال. ومجرد خروجي من منطقة الجمعية إلى منطقة الحزب الإسلامي كان يشكّل خطراً. فليس مكتوباً على رأسي أنني عربي يدعى عبد الله أنس وأنه لا دخل لي في الأمر لكي لا أُقتل، عندما اقتربت من المنطقة التي يُشرف عليها المهندس بشير، نزعت العمامة عن رأسي وبدأت ألوّح بها كعلامة سلام. تقدم أحد القادة وصاح بي بعنف: اقترب، ففعلت. عندما اقتربت منهم عرفني أحدهم وقال إنني آتٍ من عند مسعود. فشتم وقال: أعرف ماذا يريد. يريد أن يُطفىء المعركة ويذهب دم المهندس عبد الوهاب هدراً، وتنتهي المعركة بالصلح.

لم تكن المنطقة مستعدة لأن تسمع كلمة صلح. فالمهندس بشير استدعى ثلاثة آلاف مقاتل من خان آباد وقندز. وكذلك فعلت الجمعية فحشدت قواتها خشية أن يشن الحزب الإسلامي هجوماً ويسيطر على

منطقتها. كانوا يريدون المقاومة لكنهم ينتظرون ماذا ستسفر عنه مبادرات الصلح.

وصلت إلى عند المهندس بشير فوجدت الشرر يتطاير من عينيه، والبطانة التي حوله تغلي. كانوا يُكبّرون «الله أكبر»، ويقولون إنهم لا بد من أن ينتقموا. المجاهدون بالعشرات ومدججون بالأسلحة. فقلت لنفسي: لو كلّمته في موضوع الصلح الآن لطردني من الغرفة وشتمني. فقررت أن أكتفي بأن أقدّم له العزاء فقط وأنتقي من الكلمات ما لا يزيد في غضبه.

وهو كان لبقاً، فاحترمني كضيف. قال: انظر المصيبة، ماذا فعل قاضي إسلام الدين. فقلت: نرجو الله أن يتقبله في عداد الشهداء، فهو قُتل مظلوماً... وكان المهندس عبد الوهاب فعلاً رجلاً فاضلاً، إذ حصل أن التقيته وكان من خيرة أبناء المنطقة.

بقيت مع المهندس بشير إلى اليوم الثاني حتى تجرأت على أن أكلّمه قليلاً في الموضوع. قلت: قُتل المهندس عبد الوهاب، أليس كذلك؟ فأجابني: صحيح. قلت: وقد جهّزت الجيوش (وكنا نراها من الغرفة التي نتحدث فيها تقف على رؤوس التلال تنتظر الأمر للزحف على مناطق الجمعية) للهجوم على شكامش. فهل سيعود المهندس عبد الوهاب إلى الحياة لو أعطيت الآن أمراً إلى المقاتلين لبدء الهجوم على الجمعية؟ فقال: لن يعود حياً. قلت له: ألن نخسر في أثناء المعركة قتلى من الطرفين؟ رد: سنخسر بالطبع. فقلت: في المجموع، خسارة عبد الوهاب وخسارة ما ستتمخض عنه المعركة من قتلى وجرحى من الطرفين، هل هذا سيكون في مصلحة الروس أم الجهاد؟ فقال: لمصلحة الروس وليس الجهاد. فقلت: هذا هو المُسلَّم الأوّل بغض النظر عن أي شيء. فأنا معك، أُقدّر الجرح والغضب. وحتى لو لم تقتنع بكلامي فأنا مستعد لأن أنسحب من المنطقة ودبّر رأسك معهم. فقال لي إنه يوافقني على أن ما سيحصل سيكون ضد الجهاد.

قلت: أنت الآن تحشد قوات الحزب الإسلامي، والقاضي إكرام الدين والمعلّم طارق يحشدان قوات الجمعية. أول شيء يجب أن يحصل هو أن تتوقف الحشود، ثم يبدأ الحوار بينكم فوراً.

فقال: كيف أجلس مع الرذيلين والفسقة. قلت: لقد أتيت من عند إكرام الدين والمعلّم طارق، والله إنهما يبكيان لفراق المهندس عبد الوهاب. فقد درسا معه في الثانوي وفي المعهد. إنهما متأثران لخسارته مثلما أنت متأثر، وهما يقولان إن المجرم عبد الجبار، أخا قاضي إسلام الدين، جاهل. وهما مستعدان لأي شيء تطلبونه لحل المشكلة.

فأجاب بعض من كان حوله: لا نتكلم مع المفسدين. الكلاشينكوف هو الذي سيتكلم معهم.

عندما رأيت الأمر يتطور سلباً، خففت كلامي. لم أكن أريد أن تفشل وساطتي لأنها ستعني بدء الحرب، فسكتت. وجاء وقت العشاء فتعشينا. بعد ذلك، عاودت الكلام وقلت: لا مفر من أن تتكلم معهم (قادة الجمعية الإسلامية). ثم طلبت منه جهاز اللاسلكي، واتصلت بإكرام الدين والمعلم طارق. أقنعته بأن يُرسل معي رجلين كدليل طريق. لكن ذلك كان مجرد حجة لتذويب الجليد بين الفريقين. أخذتهما معي إلى الجهة المقابلة. وعندما رآني مقاتلو الجمعية جالباً اثنين من الحزب الإسلامي، رأوا في ذلك مؤشراً مطمئناً. وكنت أتمنى أن يساعدني الرجلان في نقل صورة جيدة إلى قائدهما عندما يشاهدان بأم أعينهما أن إكرام الدين والمعلم طارق متأثران جداً لقتل المهندس عبد الوهاب. وخلال وجودي عند القائد إكرام الدين اتصلت باللاسلكي بالمهندس بشير وأبلغته «أن الأخوة مستعدون للقاء بك ولتحمل المسؤولية»، فرد: ستتكلم عندما تعود إليّ.

فأخذت بدوري رجلين اثنين من عند إكرام الدين إلى الطرف الآخر. فصار معي اثنان من الحزب واثنان من الجمعية، وشعرت بأن دائرة تلطيف الأجواء تتوسع.

اقتضت عملية الذهاب والإياب بين الطرفين أربعة أيام أو خمسة. وتوصلت إلى اتفاق على جمعهم مع بعض ليحلّوا المشكلة بالصلح.

ولهذه الغاية، طلبت قاري سعيد من المنطقة التي كان يتمركز فيها. قلت له أن يأتي إلى شكامش مع كل المجموعة العربية. وصل بعد يوم واحد. قلت لهم إنني اتفقت مع قادة الحزب والجمعية على أن يحلّوا المشكلة بينهم في شأن مقتل المهندس عبد الوهاب، ولكن أريد أن آتي بقادة الطرفين إلى الاجتماع من دون سلاح. وجود عميل واحد أو منافق وسط المجتمعين، قد يؤدي إلى مذبحة. فلو أُطلقت طلقة واحدة وسط النفوس المشحونة لكانت القضية خرجت من أيدينا، وحصل حمام دم.

قلت لهم إنني اخترت بيتاً معيناً لكي يجلس الأمراء الثلاثة مع بعض ويحلوا خلافهم. المهندس بشير، ومعه بعض قادة الحزب، والمهندس إكرام الدين والمعلم طارق من الجمعية. البيت مكان الاجتماع سيكون بحماية العرب الذين سيكونون جهة ثالثة محايدة. وطلبت من قاري سعيد أن يصعد إلى سطح المنزل مع مجموعته وعددهم ستة عشر عربياً. قلت لهم: صوّبوا سلاحكم إلى كل الجهات. ممنوع أن يقترب أي شخص إلى مكان المجتمعين.

وكنت في ذلك الوقت صرت أتقن الفارسية، فقررت أن أجلس في الداخل معهم وأساعدهم على حل خلافاتهم. ولم أكتف بذلك، بل جلبت ثلاثة علماء من الجمعية وثلاثة علماء من الحزب، اقتنعوا معي بأن الحرب خسارة للطرفين. لم يقتنعوا بذلك فقط، بل كانوا متحمسين لتسوية الخلاف بالصلح.

وحصل اجتماع القادة وتمخض عن صلح وتم القصاص من القاتل، ورجعت الأمور إلى مجاريها من دون أن تراق نقطة دم واحدة. وذهب قادة الجمعية لتقديم العزاء إلى ذوي المهندس عبد الوهاب.

الفصل السادس

مذبحة فارخار ولقاء مسعود والشيخ عبد الله

عُدت إلى باكستان بعدما حُلَّت معركة الشمال بين المجاهدين في شكامش صلحاً، وعاد معي بقية العرب الذين التحقوا بأحمد شاه مسعود، إذ كان بعضهم سبقنا بشهور إلى بيشاور للعلاج إثر إصابتهم في معركة مديرية النهرين، كما حصل مع «أبو عبيدة البنشيري».

صُدمت بما رأيت في بيشاور سنة ١٩٨٨. شعرت بأن «مكتب الخدمات» لم يعد البيت الوحيد الذي يُشرف على تسيير شؤون العرب. كان «بيت الأنصار» قد تأسس، ووجدت نوعاً من الجرأة في أوساط العرب على الشيخ عبد الله عزّام. لم تعد له تلك الهيمنة المطلقة التي كان يملكها عليهم منذ بداية الجهاد. تكاثرت مضافات العرب وتزايدت أعدادهم. لاحظت أن تشكيلة ساحة العرب في بيشاور باتت تشكيلة أخرى. لكن الشيخ عبد الله بقي محتفظاً بـ «مكتب الخدمات». بقيت معه شهرين أو ثلاثة أشهر، ثم عدت إلى مسعود. ولم يكن الشيخ يخفي امتعاضه من تصرفات بعض الإخوة الطيبين الذين بدأت اجتهاداتهم تختلف عن اجتهادات الشيخ حول مشاركة العرب.

بعد فترة من بقائي مع منصور في فارخار، انتقلنا إلى بنجشير. هناك جمع مسعود عدداً كبيراً من قادة جماعته، من كل الشمال الأفغاني، للخضوع لدورة تدريبية. كانوا قرابة سبعين قائداً، وكانت مدة الدورة عشرة أيام، سلّمني فيها جانب الوعظ الديني. وكان هناك ضابط يقدّم دروساً في

الشؤون الاستراتيجية، وآخرون يُقدّمون دروساً في شؤون مختلفة، في حين كان يعطيهم مسعود دروساً عن تجربته الجهادية. في اليوم الخامس للدورة، جاء اتصال لاسلكي من الشيخ عبد الله عزام في بيشاور. وأخبرني مسعود أن رسالة الشيخ تطلب مني أن أحضر إلى بيشاور «على جناح السرعة». ثم أضاف: لماذا لا تقول للشيخ عبد الله أن ينتظرك بضعة أيام أخرى ريثما تنتهي الدورة. فقلت له: إذاً، سأبقى حتى انتهاء الدورة ومن ثم أعود إلى بيشاور.

ولكن في اليوم التالي تلقينا رسالة ثانية باللاسلكي من الشيخ تسأل: هل تحرّكت أم لا؟ وكان الرد أنني لم أتحرّك، وجاء الجواب بسرعة بأن عليّ أن أنطلق فوراً. . .

وتحركت فعلاً، ولما وصلت إلى بيشاور والتقيت بالشيخ عبد الله عزام، أصرَّ على ألا أفارقه طوال مكوثي في بيشاور، وقال لي: هناك تقرير موقع من ٢٠ عربياً(*) ممن كانوا معك مفاده أن مسعود عميل، وفاتح مضافات مجهزة بمسابح للفرنسيات كي يسبحن فيها، وأنه يقتل العرب، وهو عدو الجهاد في أفغانستان، وأنه فتح سجناً يضع فيه العرب والحمير جنباً إلى جنب، وغيرها من الاتهامات التي أُشهد الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، على أني لم أر منها واحدة طوال السنوات التي مكثتها مع مسعود.

فقال لي: وأنا رفضت الاستماع إليهم إلا بحضورك أنت. ولدينا جلسة ستبدأ بعد يومين مخصصة لمناقشة هذا الأمر. واجتمعنا في الموعد

(*) أريد أن أوضح للقارئ أن العرب العشرين الذين كانوا معي لا يعني أنهم كانوا موجودين معي عند مسعود في جبهاته، وإنما كانوا معي في شمال أفغانستان الذي كنت أميراً عليه، ولم يكن معي من هؤلاء العشرين سوى ثلاثة، وهم قاري سعيد، وشقيقه عبد الرحيم، وعبد الواحد الجزائريون، والباقي كلهم كانوا من العرب الذين كانوا يعيشون في جبهات الحزب الإسلامي بقيادة قلب الدين حكمتيار، وهي المجموعة التي اتفقت أنا والشيخ عبد الله عزام على إرسالها إلى الحزب كي تكون عوناً لي في التقريب بين الحزب الإسلامي والجمعية الإسلامية في شمال أفغانستان.

المحدد، ويبدأ بقراءة التقرير أحد الحاضرين. وعندما فرغ من القراءة لفت انتباهي اسم «محمد هارون» أثناء قراءة التقرير، وكانت معظم الشهادات الواردة في التقرير تنتهي إليه. وما لفت انتباهي في هذا التقرير أنه لم يكن معي في الشمال لا بين العرب الذين كانوا عند الحزب الإسلامي، ولا بين الذين كانوا معي عند مسعود، مثل هذا الاسم. وهنا رفعت يدي وسألت عن محمد هارون هذا الذي لم ألتقِ به في أفغانستان، فرفع قاري سعيد يده، فكانت فعلاً مفاجأة لي. فقلت له أنا لا أستطيع أن أرد على شهادة مقدمة من مجهول، فيجب أن يُحذف اسم «محمد هارون»، وتثبت اسمك الذي نعرفك به. فإذا كانت شهادتك شهادة حق فلماذا لا تقدمها باسمك الحقيقي؟.

وعندما وافق على تغيير اسمه بدأت بتوجيه الأسئلة إليه عن هذه التهم، وحاولت أن أتبينّ في أي يوم، وفي أي قرية رآها؟ فأجابني بأنه لم يرها بنفسه، لكنه سمع عنها من أحد الحاضرين ويدعى «عبد الله جعفر». وكان عبد الله جعفر، هذا، من العرب الذين يعيشون عند «سيد جمال» قائد الحزب الإسلامي في تاخار، ولم يعش في مناطق مسعود، ولو ليوم واحد. وعندها سألت «قاري سعيد»: أوَيُعقل أن ينقل من عاش قرابة سنتين عند مسعود أخباراً واتهامات عمّن لم يعش عند مسعود أسبوعاً واحداً؟ وعندها تدخل الشيخ عبد الله عزام، رحمه الله، بسؤال إلى «قاري عبد الرحيم»، وهو الشقيق الأصغر لـ «قاري سعيد»، وكان ممن عاشوا معي في جبهات مسعود قرابة سنتين، وكانت له مكانة خاصة في قلبي لما وهبه الله من خصال حميدة برغم القطيعة الشديدة التي حصلت بيني وبينه عندما انضم إلى الجماعة الإسلامية المسلحة(*) (G.I.A.).

(*) حوّل جهاز المخابرات الجزائرية الجماعة الإسلامية المسلحة إلى يد ضاربة في تصفية حساباته مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ، إذ حكمت على قياداتها في الخارج بالموت إذا لم تتوقف عن النطق باسم الجبهة في الخارج خلال شهر من صدور البيان الذي وقعه أميرها «زيتوني»، وشمل البيان مجموعة من نشطاء الجبهة في الخارج وهم عبد الله أنس، عبد الباقي وقد

ولا يفوتني أن أذكر هنا، أن قاري عبد الرحيم خرج من الجماعة الإسلامية بعد أن اكتشف ضلالها، ودخل في إطار الوئام المدني الذي أُبرم بين الجيش الجزائري والجيش الإسلامي. سأله الشيخ عبد الله عن حقيقة هذه الاتهامات فقال: أنا بين شقيقي وحبيبي ـ وكان يقصدني بهذا ـ وبين قول الحق، وأنا سأختار قول الحق وهو أني لم أر شيئاً من جميع التهم التي ذُكرت. وبعد انتهاء الجلسة التي دامت ثلاثة أيام أدرك الشيخ عبد الله أن الأمر قد يكون أكبر من عواطف هؤلاء الشبان الذين لا يقدّرون أبعاد المسائل. والغريب في الأمر أن البيان تُرجم إلى اللغات الفارسية والباشتونية والإنكليزية في أقل من أسبوع، والذي تبيّن في ما بعد أن جهات أخرى كانت وراء استغلاله. وبعد شهر من هذه الجلسة، رجعت إلى مسعود بمساعدات أكثر وأكبر من المساعدات التي كان يقدمها إليه الشيخ عبد الله في المرات السابقة.

وحتى يكفّ بعض المستغلين لاسم الشيخ عبد الله عزام في تسويق بضائعهم الفاسدة، فإني أرفق مع كتابي هذا، شهادة الشيخ عبد الله عزام في أحمد شاه مسعود، بعد أن زاره وتأكد من زيف الشائعات التي كانت تُطلَق عليه (راجع الملحق رقم ٢).

= قتلته فعلاً في مسجده بباديس، رابح كبير، أنور هدام، قمر الدين خربان، سلمان وأسامة ولدا الشيخ عباسي مدني.

نشرت البيان نشرة الأنصار التي كانت تصدر في لندن، وكان من أبرز كتابها أبو قتادة الفلسطيني الذي أعلن دعمه الكامل للأعمال الإجرامية التي كانت تقوم بها هذه الجماعة من قتل للأطفال والنساء والدعاة.

فعندما قامت هذه الجماعة بقتل داعية الجزائر الشيخ «محمد السعيد»، رحمه الله، كتب أبو قتادة في عددها ـ ١٣٢ ـ الصادر بتاريخ ١٨ ـ ١ ـ ١٩٩٥ الخميس ٢٧ شعبان ١٤١٦ هجرية، كلاماً أنقله حرفياً:

«وليس محمد السعيد ككل أحد، ولكن لا ينبغي التهويش باسمه من دون النظر المبصر لسبب القتل، ولكن عندي ما يجعل لقتله عذراً وتأويلاً. فمن أراد أن يفتح باب الحوار مع الطواغيت أو ينشئ علاقات مع طواغيت أجانب عن بلده كالقذافي وغيره، وسعى عاملاً للعودة إلى الديموقراطية، فهذا حكمه القتل ولا كرامة (له)». انتهى البيان.

جال الشيخ عبد الله مع برهان الدين رباني يرافقهما وزير الإعلام في حكومة رباني السيد صديق تشكري في المناطق الأفغانية، والتقوا بمسعود، وكنت أنا أتولى الترجمة بينهم. قال الشيخ عزام، موجهاً كلامه إلى مسعود في بداية اللقاء: أريد أن أقول لك إنني مررت بثلاث مراحل في علاقتي معك: الأولى مرحلة بغضك والدعاية ضدك، وكنت أستقي فيها المعلومات من منافسيك الذين يقولون عنك إنك فرنسي وتقوم بهذا الأمر أو ذاك. وكتبت ضدك رسالة صغيرة بعثت بها إلى بيروت للطباعة، ولكن قدّر الله أنها ضاعت في الطريق بعدما تعرّض الأخ الذي كان يحملها لحادثة. هذه الفترة الأولى التي مررت فيها ناصبتُك العداء. أما المرحلة الثانية فكانت مرحلة التوقف في حقك، لا مدحاً ولا ذماً، وهي عندما زارك أخونا نور الدين (أحد العرب الذين أُرسلوا إلى مسعود) ونقل إلينا صورة عنك. أما المرحلة الثالثة فكانت مرحلة محبتك واحترامك والاندفاع في نصرتك، وهي المرحلة التي جاءنا فيها عبد الله أنس بعد زيارته لك. اعتبِرْنا الآن أحباءك، وما قيل في حقك سوف نعتبره كذباً وبهتاناً.

وعاد الشيخ عبد الله إلى بيشاور بعدما بقي مع مسعود قرابة شهر ونيف، ووضع كتيّباً بعنوان «شهر بين العمالقة» حكى فيه قصته مع مسعود. عاد الشيخ عزّام من بنجشير والشمال الأفغاني مقتنعاً بأن الحل في أفغانستان لا يمر سوى عبر جمع أحمد شاه مسعود وقلب الدين حكمتيار. وكان التقى خلال جولته مع رباني، قادةَ الحزب الإسلامي الذين دعوتهم إلى مناطق مسعود. فجاؤوا على رغم الحساسيات بينهم وبين الجمعية الإسلامية، ودخلوا منطقة الجمعية التي لم يكونوا قد وطئوها منذ سنوات خلت.

جولة مع حكمتيار ومذبحة فارخار

صار التقارب بين حكمتيار ومسعود بالغ الأهمية عند الشيخ. وصادف أن قرر حكمتيار، بعد قرابة أربعة شهور أو خمسة من جولة رباني في شمال أفغانستان، أن يزور بنفسه مناطقه في الداخل. إذ إنه كان على

اتصال دائم بقادة الحزب الإسلامي على الجبهات القريبة من الحدود الباكستانية، مثل جلال آباد وخوست. لكنه كان منقطعاً عن كثيرين من قادته في عمق أفغانستان. وقد طلب حكمتيار من الشيخ عزام أن يرافقه في جولته مثلما رافق رباني. فوجوده لا بد من أن يُعطي بُعداً معنوياً مهماً للجولة، نظراً إلى التقدير الكبير الذي يحظى به الشيخ عزام في صفوف الأفغان. وبالفعل، دخل الشيخ عزام مع حكمتيار مناطق الحزب الإسلامي في ضواحي كابول ومناطق الشرق، وكنت أُرافقهما في الجولة بناء على رغبة من الشيخ عبد الله عزام.

وليس سراً أن الشيخ عزام كان يُراهن منذ فترة على جمع حكمتيار بمسعود. ورأى بلا شك أن الفرصة مؤاتية الآن، خصوصاً أن حكمتيار موجود في وسط أفغانستان (ولايتي باروان وكابيسا)، ومسعود في مقراته التي لا تبعد أكثر من يومين أو ثلاثة سيراً. ولكن كان عليه أن يُقنع أولاً حكمتيار بذلك. ففاتحه بضرورة حصول لقاء بينهما. وألح عليه مُثيراً الموضوع في كل يوم تقريباً. لكن بعض قادة الحزب سعوا إلى ثنيه عن قبول الطلب وصاروا يهوّنون من شأن مسعود.

ودفع ذلك الأمر الشيخ عزام إلى القول لحكمتيار في إحدى المرات: أريد أن أضرب لك مثلاً: الفرق بينك وبين بعض قادتك هو كأبناء بعث بهم أبوهم إلى مكان بعيد يأتون منه بأمانة. لكن المكان بعيد ومخيف، فبدل القول لأبيهم إننا لن نذهب قالوا له ذهبنا، وهم في الحقيقة لم يذهبوا. فبقيت الأمانة في مكانها، ولم يصدقوا أباهم. وأنتم لم تصدقوا حكمتيار في نتائج الخير التي يمكن أن يثمرها لقاؤه مع مسعود.

في النهاية، بعد جهد مضن، اقتنع حكمتيار باللقاء، وأعلن موافقته عليه في أثناء وجوده عند الأستاذ عبد الصبور فريد؛ أكبر قائد في الحزب الإسلامي في كابول وضواحيها (باروان وكابيسا)، وهو أول رئيس وزراء لحكومة أفغانستان بعدما دخلها المجاهدون سنة ١٩٩٢.

وكانت المنطقة التي يُشرف عليها الأقرب إلى مناطق مسعود. فقال لي الشيخ عبد الله: لقد انتهت مهمتي الآن، فبيّض لنا وجهنا وأقنع مسعود باللقاء. فقلت له: لا تهتم سأقنعه. وهو كان آنذاك في فارخار في ولاية تاخار، وتبعد عن مكان وجودنا مسيرة أربعة أيام، سيراً على الأقدام.

حضّرت ملابسي وما أحتاج إليه في سفري وتحركت. ولكن بعد ثلاث ساعات تلقيت اتصالاً باللاسلكي. قال لي الشيخ: ارجع. سألته: لماذا؟ قال: سأخبرك عندما تعود.

رجعت فرأيته جالساً مع حكمتيار. سألته: طلبت مني العودة وأنا في بدء الرحلة. قال: قبل قليل بث راديو الـ «بي. بي. سي.» أن واحداً وثلاثين قائداً (من الجمعية الإسلامية) ذُبحوا على يد سيد جمال قائد الحزب الإسلامي في شمال أفغانستان. كل الأمور التي رتّبناها انقلبت رأساً على عقب، وبوادر الصلح التي عملنا من أجلها تبخّرت.

حصلت تلك المذبحة يوم ٩ تموز/يوليو عام ١٩٨٩. كان سيّد جمال، وهو قائد كبير في الحزب الإسلامي يتنافس مع المهندس بشير على قيادة المنطقة الشمالية، عقد صُلحاً مع قادة مسعود على أن يعبر منطقته مجاهدو الحزبين من دون حراسة. لكنه تحيّنٌ الفرصة وخان العهد واستغل مرور قادة الجمعية من دون سلاح في منطقته، فذبحهم مثل النعاج، واحداً تلو الآخر.

قال الشيخ عبد الله إن خبر المذبحة سيكون قاصماً لكل الجهود التي بُذلت للتقريب بين حكمتيار ومسعود. وتوجه إلى حكمتيار قائلاً: ما الحل الآن؟ فرد: لا أعرف. هذه كارثة أخرى حلت بالجهاد.

قال لي الشيخ: لن تذهب وحدك إلى مسعود، سأرافقك. فهذه كارثة كبرى، وإذا لم نستطع تداركها، فإن آثارها ستكون كارثة على الجهاد.

ثم طلب أن يُجهّزوا لنا الخيل وانطلقنا في اتجاه مناطق مسعود. وصلنا إليه بعد أربعة أيام في منطقة ورسج، فبادر مسعود الشيخَ عبد الله عندما التقاه: إنني أخاف على عبد الله أنس. فالمنطقة محتقنة، ويشعر الناس هنا بأنه السبب في الصلح الذي سمح للسيد جمال بالغدر بالمجاهدين.

قال الشيخ: يجب احتواء هذه المصيبة بأي ثمن، لأن ما سينبني عليها سيكون كله دماراً. فرد مسعود: إنني في حرج كبير. أنت تعلم أنه لو حدثت الكارثة في بنجشير وتعرض قادتي هناك لمذبحة مثل هذه لتصرفت بالأمر لأنني بنشيري. أما ما يربطني بالقادة هنا في ولاية تاخار وفي الشمال فهو ارتباط حزبي، ولا ولاء شخصياً بيني وبينهم، وبالتالي لا أملك أن أسمح بسفك دمائهم. بل لو قلت لهم عفا الله عما مضى، فأنا نفسي سأُطرد من الشمال ولن يعترف أحد بي قائداً. الأمر ليس في يدي.

ثم تحدث مسعود عن أن أحد قادته، ويدعى صفي الله، قُتل في مكمن للحزب الإسلامي، وأن قادة بنجشير أرادوا الانتقام له فمنعهم، قائلاً: إذا قتلتم مجموعة من الحزب الإسلامي فلن يعود صفي الله. فقولوا رحمة الله عليه.

قال له الشيخ عبد الله عند ذاك: إذاً، طبّق هذا النموذج على الوضع الآن. فأجابه: لا تنسَ أن صفي الله بنشيري وأنا تنازلت عن دمه. أما الآن فالمقتولون من تاخار وبادخشان، وما يربطني بهذه المنطقة فقط أنني من الجمعية الإسلامية وهم منها. ولكن لا ولاء عرقياً أو قبلياً لي عليهم. الأمر صعب جداً. أنا نفسي حائر كيف أتعامل مع هذه الأزمة. إذا تركت الحبل على عنانه فستشتعل معركة لا يستطيع أحد وقفها. وإذا لم أنظم عملية الرد أنا بنفسي فسوف يفلت الحبل، وسوف تعيش المنطقة بمعارك انتقامية لن تكون لنا سيطرة عليها.

عودة الشيخ وردّ مسعود

ظل الشيخ عبد الله ثلاثة أيام يُحاول تهدئة الأجواء وتطويق الفتنة. لكن المنطقة كانت تعيش غلياناً. فجاءني مسعود وقال لي: أخ عبد الله، أنت تعلم أن مذبحة فارخار كارثة سمع بها العالم الإسلامي كله. والناس تعلم أن الشيخ عبد الله عزام موجود عندنا. فمن العيب الكبير أن يكون رجل بهذه الهيبة وهذا الاحترام موجوداً عندنا وتبدأ المعارك في أفغانستان، ولا يستطيع وقفها. فهذا انتقاص من هيبته. وأنا لا أستطيع وقف المعارك التي ستحصل. الأمر على وشك الانفجار حتى من دون أمري. هناك احتقان. لذلك لا أحب أن تشتعل الحرب، وهو بيننا ولا يستطيع وقفها. فما رأيك لو أعدته إلى باكستان.

أبلغت الشيخ بما حصل. فطلب أن نُجهِّز لنا قافلة للعودة إلى باكستان. ولكن قبل أن يغادر المنطقة طلب من مسعود تعهّداً. قال له: أريدك أن تعاهدني على ألا تتجاوز الحرب الجاني. فقال له مسعود: سوف أفي لك بهذا العهد.

انطلقت قافلتنا في اتجاه الحدود الأفغانية ـ الباكستانية، ووصلنا بعد مسيرة أيام إلى نقطة تشترال الحدودية. هناك سمعنا أن مسعود ردّ بالفعل على مذبحة فارخار، لكنه بقي وفياً لتعهّده للشيخ عزام. إذ إن العملية التي بدأت مع صلاة الفجر واستغرقت أقل من نهار، انتهت باعتقال المتهم بارتكاب المذبحة سيّد جمال وشقيقه سيد ميرزا وأحد أقربائهما.

عندما سمع الشيخ عبد الله بالخبر ـ وكان مصدره كالعادة في أفغانستان راديو الـ «بي بي سي» باللغتين الباشتونية والفارسية ـ ركب سيارته وعاد إلى بيشاور، في حين قفلت أنا عائداً إلى الشمال.

وعلى الرغم من أن الرد انحصر بهؤلاء الثلاثة، إلا أن تداعيات مذبحة فارخار زادت من سوء علاقة الفصائل الأفغانية بعضها ببعض، وأدت إلى سقوط حكومة المجاهدين المؤقتة التي شكّلوها بعد انسحاب

السوفيات في ١٩٨٩، وكانت هذه الحكومة تشكلت برئاسة صبغة الله مجددي في راوالبندي في بيشاور واعترفت بها السعودية في ١٠ آذار/مارس ١٩٨٩. ولكن لم تكد تمر شهور قليلة على تشكيلها حتى وقعت المذبحة في فارخار يوم ٩ تموز/يوليو، فأعلن برهان الدين رباني في احتفال تأبيني للضحايا في بيشاور، يوم ١٨ تموز، تجميد عضوية حكمتيار في حكومة المجاهدين، علماً بأنه كان مُكلَّفاً بمنصب الناطق الرسمي باسم وزارة الخارجية. فرد حكمتيار في ٥ آب/أغسطس بإعلان حل الحكومة كلها، قائلاً إنها فاقدة الاعتبار.

سيد جمال

رجعت إلى الشمال وكانت بيني وبين سيد جمال صداقة. فهو عزيز قوم. أبلغني مسعود أنه موجود في السجن ينتظر محاكمة العلماء، إذ كان يُصرّ على عدم قتل أحد ما لم يعرضه على القضاء. ذهبت إليه ووجدته مقيّداً بالأغلال في يديه ورجليه. قلت لقاضي التحقيق: هذا قائد زرته في بيته مراراً وتكراراً يوم كان تحت إمرته ألفا مجاهد، فلا أحب أن أزوره في زنزانته، فهل تمانع في أن تأتي به إلى مكتبك هذا، لكي يبقى على كرامته، أمامي على الأقل؟ فقال: لك ذلك.

أتوا به بعدما نزعوا الأغلال من يديه ورجليه. تبادلنا التحية، وكان معنا شقيقه سيد ميرزا. طلبت من المحقق أن يتناول معنا الغداء أيضاً. فتغدينا. حزّ كثيراً في نفسي الذل الذي وصل إليه سيد جمال. كان الأَولى أن توجَّه الجهود إلى الخصم بدل الصديق. فقلت له إنني سأبيت عنده في غرفة سجنه. وبت عنده فعلاً، لأنه صديق، وكنتُ قبلاً قد زرته مراراً عندما كان قوياً عزيزاً في منطقته.

قلت له: ما طلبك يا سيد جمال؟ أجاب: لو صرف عليّ مسعود خمسمئة مليون دولار لما كان أسر قلبي كما أسره الآن وأنا أسير عنده. إنني ألقى معاملة لا أحلم بها. إنهم يكرمونني تكريماً كبيراً.

سألته: وما هو طلبك غير هذا؟ أجاب: أريد قليلاً من اللوز والزبيب المجفف. فذهبت واشتريت ما طلبه من السوق.

ثم سألته: وغير هذا، ما هو طلبك؟ أجاب: قل لمسعود أن يطلق سراحي ويعطيني فترة أسبوع وأعدك بأنني سأقضي له على خصمه «الإنجنير بشير» (القائد الثاني للحزب الإسلامي في شمال أفغانستان).

كان هناك تنافس بين بشير وسيد جمال على القيادة في الشمال الأفغاني. وبعد أسر سيد جمال، خلا الجو للمهندس بشير. وكتعويض، طلب سيد جمال أن يُطلق مسعود سراحه ويمنحه أسبوعاً ليُحضر له بشير «حياً أو ميتاً».

قلت له: أنا مستعد لأي وساطة، أما أن أتوسط لك لكي تقتل مسلماً فأنا أعتذر. لا أوافق على خروجك من السجن إذا كنت تبغي قتل مسلم.

وبقي سيد جمال في السجن قرابة خمسة شهور حتى صدر عليه الحكم في ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٩. بعد خمسة شهور من مذبحة فارخار في تموز، عُلّق كل من سيد جمال وشقيقه وشخص آخر على حبل المشنقة في ساحة عمومية في تاخار. انتهت الأزمة في الشمال، ولم تقع الحرب. لكن المذبحة خلّفت ظلالاً على علاقات المجاهدين، على الرغم من أن حكمتيار أدانها، ووصفها بأنها غدر.

الفصل السابع

خروج الروس ومقتل عبد الله عزام

كان العام ١٩٨٩ عام الأحداث الكبيرة في أفغانستان. ففي مطلعه، تحقق الانتصار: هُزم الجيش الأحمر وخرج ذليلاً يجر أذيال الخيبة من المستنقع الأفغاني. خرج مُنبئاً ببدء انهيار الامبراطورية السوفياتية، ومُحققاً ما يقوله الأفغان عن بلادهم بأنها «مقبرة الامبراطوريات». وهكذا ما كادت سنوات طويلة تمر، حتى تغيّر الطاقم الحاكم في الكرملين وجاء زعماء جدد بدأوا بتصفية تركة أسلافهم.

إذاً، حمل العام ١٩٨٩ انتصاراً عظيماً للشعب الأفغاني الذي بذل تضحيات جساماً في سبيل تحقيقه. لكنه حمل أيضاً فاجعة كبيرة للأفغان والعرب على حد سواء، بفقدانهم المحرّك الأساسي للقضية الأفغانية في العالم الإسلامي: الشيخ عبد الله عزّام.

يوم ١٤ شباط/فبراير ١٩٨٩، كان يوماً للتاريخ. فيه أكمل الجيش الأحمر سحب آخر جنوده من أفغانستان بعدما غرق في رمالها المتحركة وجبالها الشاهقة طوال عشر سنوات. وكُنت شاهداً على هذا الحدث. يومها كنت أقف على مرتفع بسيط في منطقة تقع بين بنجشير وباروان. حملت منظاراً أراقب من خلاله آخر الدبابات والعسكريين الروس يودعون الأراضي الأفغانية عائدين إلى بلادهم.

كانت فرحتي لا توصف. فهذا الجهاد الذي بدأ بالعصي والخناجر

والحجارة، وصل إلى الحد الذي هزم فيه أقوى قوى الأرض تسليحاً، وها أنت تراها بعينيك تجرّ أذيال الخيبة راجعة إلى الاتحاد السوفياتي.

ولا أزال أذكر أن الروس «ودّعوا» منطقة بنجشير، وهم منسحبون، بقصف جوي نفّذته أسراب من طائراتهم. قصفوها حقداً. فهي المنطقة التي هزمهم فيها أحمد شاه مسعود وألحق بهم أذى شديداً وكبّدهم خسائر لا تُحصى، وصار يُعرف بعدها بـ «أسد بنجشير» (أسد الأسود الخمسة)، وهو لقب كان الصحافيون الفرنسيون أول من أطلقه عليه عندما سمّوه «لو ليون دو بنجشير» Lion de Pangsheer.

تجولت في المنطقة بعد انسحاب الروس. كنتُ، كيفما تطلعت، أرى دبابات وشاحنات عسكرية روسية مدمرة أو محروقة. صرت أعدها. ظللت أعدها طوال يوم كامل: دبابة، اثنتان، ثلاث... حتى وصل العدد إلى ألف دبابة وشاحنة مدمرة في بنجشير. وزار الشيخ عبد الله عزّام المنطقة بعدها. تجوّلت وإياه من أولها إلى آخرها. وقال لي عبارة لا أنساها: أخشى أن تتعرض هذه الشاحنات والدبابات، هذا الشاهد التاريخي، للتلف نتيجة الأمطار والثلوج. سأعطيك مبلغاً من المال لتدهنها كلها بالرصاص لئلا تؤثر فيها الأمطار، وتبقى معلماً للأجيال.

ساهمت عوامل عدة في تحقيق النصر على الاتحاد السوفياتي. كانت هناك عناصر خارجية بالتأكيد، وعلى رأسها دور باكستان التي شكلت القاعدة الخلفية للمجاهدين الأفغان ومركز تسليحهم وتدريبهم، ودور الدول العربية والإسلامية، ودور دول الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة التي قدّمت دعماً سياسياً وعسكرياً. لكن العنصر الأساسي في المعركة كان الأفغان أنفسهم. فالشعب الأفغاني هو الذي قدّم الشهداء والجرحى والأيتام والأرامل واللاجئين، وهو الذي ضحى بكل ما يملك لدعم الجهاد والمجاهدين. ولولا هذا الشعب الذي احتضن المجاهدين وساعدهم، لما

استطاع هؤلاء تحقيق النصر على قوة تفوقهم بأضعاف، ومزوَّدة بأحدث أنواع الأسلحة وأشدها فتكاً.

العرب نقطة في بحر

وهناك من يقول أيضاً إن العرب، أو من أصبح يُطلق عليهم «الأفغان العرب»، لعبوا دوراً بارزاً في المعارك ضد الجيش الأحمر. نعم، شارك العرب في تلك المعارك وساهموا إلى جانب إخوانهم الأفغان في دفع قسط من ثمن المواجهة. سقط لهم الكثير من الشهداء. لكن الحقيقة تقتضي أيضاً الاعتراف بأن العرب، من حاملي الرشاشات إلى رماة المدفعية، كان دورهم «نقطة في بحر». فالجهد كله تحمّله الأفغان. ولذلك أستغرب عندما أرى بعض الأجهزة العربية، وحتى الغربية أيضاً، يحاول أن يُظهر أن الأفغان العرب هم الأصل في الجهاد الأفغاني. والقارئ يمكن أن يصدق ذلك إن لم يكن مُلمّاً بالقضية الأفغانية وتفاصيلها. يمكن أن يعتقد أن «الأفغان العرب» هم الأصل، بينما الأفغان هم الفرع. لكن العكس هو الصحيح. فكل مجموع العرب في أفغانستان لم يكن يتجاوز ألفي شخص. مشاركة الأمة الإسلامية كلها بأبنائها الذين ذهبوا إلى أفغانستان، بعربهم وعجمهم، لم تكن تتجاوز ألفي مجاهد. وفريق صغير جداً من هذا العدد دخل أفغانستان وشارك في القتال مع المجاهدين. فالبقية كانت تعمل في بيشاور أطباء وسائقين وطبّاخين ومحاسبين ومهندسين. ولست أدري ما الهدف من تكبير حجم «الأفغان العرب» ودورهم. وقد ترك ذلك للأسف صورة سلبية في الدول العربية، حيث صُوّر الذين كانوا في أفغانستان، بأنهم يُشكّلون تهديداً ينبغي استئصاله. وقد استخدم بعض الأنظمة هذه الورقة لقمع الحريات والحياة السياسية. ولقد سألني ضابط في المخابرات الجزائرية سابقاً يعيش في أوروبا حالياً، عن عدد الجزائريين في أفغانستان، فقلت إنه لا يزيد عن ثلاثمئة، فقال لي: نعم، إن العدد الذي كان مسجلاً عندي في شعبتي في العاصمة هو مئتان وخمسون.

لكن انسحاب الجيش السوفياتي لم يؤدِّ إلى انتهاء الحرب في

أفغانستان، إذ ترك الروس وراءهم نظاماً شيوعياً مسلَّحاً تسليحاً قوياً ويُمسك بالسلطة في كابول ومعظم المدن الكبرى. ولذلك، استمرت المواجهات طوال ١٩٨٩ بين قوات رئيس النظام الأفغاني نجيب الله وفصائل المجاهدين التي كانت أيضاً تُعاني استمرارَ الحساسيات بينها، وتحديداً بين الحزب الإسلامي بقيادة قلب الدين حكمتيار والجمعية الإسلامية بقيادة برهان الدين رباني وقائده العسكري المحنّك أحمد شاه مسعود. وقد أدت تلك الحساسيات لاحقاً إلى ضياع الثمرة التي تحققت بانسحاب الروس، فتلاشى الانتصار الذي رأيته أيضاً بعيني، يتبخَّر ويذوب كما يذوب الملح في الماء نتيجة اختلاف المجاهدين يوم دخلوا كابول.

كان الشيخ عبد الله عزّام يُحذِّرنا، في كل مرة، من عدم الخوض في قضايا الأفغان الداخلية. كان يقول لنا: نحن أيتام أبناء أرملة. أي واحد يتزوج بأمنا فهو أبونا. لا يهمنا من يحكم أفغانستان من بين القادة السبعة (حكمتيار، رباني، مجددي، محمد نبي، سياف. . . .). نحن لا يحق لنا أن نتدخل في شؤونهم. أي واحد منهم يُتفق عليه أو تحصل له البيعة، فذلك الذي نعترف به. لا نتدخل في شؤونهم الخاصة. فإذا دخلوا كابول واقتتل المجاهدون في ما بينهم فلا يجوز أن نقف مع واحد منهم ضد آخر. تلك كانت رسالته.

اغتيال الشيخ عزّام

بقيت طوال الشهور التي تلت انسحاب الروس، في شباط/ فبراير ١٩٨٩، مع أحمد شاه مسعود في ولاية تاخار. في أواخر تلك السنة، كنت نائماً في منزل في طالقان (عاصمة ولاية تاخار). لم أبق في ذلك اليوم مع مسعود. صحوت وصلّيت الصبح. لم يمر وقت طويل، حتى طرق الضابط خليل، من الجمعية الإسلامية، باب البيت. لم تكن عادته أن يزورني في مثل هذا الوقت. قال إن «أمير صيب» (مسعود) أوفده إليّ طالباً رؤيتي. فقلت له: يريدني الآن؟ فأجاب: نعم، الآن. سألته: أين هو؟ قال: في منزل أكرم خان.

أبلغته أنني سألتحق به بعد نصف ساعة ريثما أرتدي ثيابي. فقال: لا، يجب أن تمشي الآن معي. فهو طلب مني أن أُحضرك معي، فتوجستُ من أن أمراً خطيراً قد حصل.

سرت معه إلى مسعود. كانت العادة أن نجلس في غرفة الضيوف عندما نكون في منزل أكرم خان. لكن مسعود استقبلني هذه المرة في غرفة النوم لأنه يريد أن تكون الجلسة خاصة. بدأ بمقدمة قائلاً: لا بد من أنك تعرف أن الهزات التي تصيب المؤمن في حياته غالباً ما يستطيع الإنسان الفطن والذكي أن يستغلها لتصبح رصيداً في تجربته، وتكون سبباً في تحمله الصعاب وبناء شخصيته.

كنت أستمع باستغراب لما يقول. ثم أضاف: أنت تعلم أن هذه الطريق التي اخترناها ليست مفروشة بالحرير بل بالشوك. والجهاد في سبيل الله ليس فقط كلمة تقال، بل عمل قد تفارق بسببه الأحباب والأصدقاء. وزاد: أنت تعلم كَمْ فارقنا من أحبة طوال بقائك معنا، ويمكن أن يأتي غداً، الدور عليّ أو عليك. وكنتُ أزداد قلقاً كلما زاد هو من هذه المقدمات. فقلت له: طيّب، فما هو الأمر الذي استدعيتني من أجله، وتريد أن تخبرني إياه؟ أجاب: سمعت صباحاً في إذاعة الـ «بي بي سي» أن الشيخ عبد الله عزام فُجّرت سيارته في بيشاور وقُتل، وكان معه اثنان من أولاده. لم يذكروا اسميهما. قالوا فقط إنهما كانا معه.

فقدت توازني عند ذلك، ورحت أبكي، وراح هو أيضاً يبكي. وساد الصمت لدقائق، ثم استأنف الكلام.

قال إن الشيخ عبد الله عزام رجل أمة ويجب أن يكون وراءه رجال، وأن نواصل مسيرته الربانية بحسب الخط الذي رسمه، خط العلم والدعوة والتضحية ونصرة الأمة.

مرّ نصف ساعة، حتى استطعنا أن نلتقط أنفاسنا. طلب لنا الشاي

فشربناه معاً. وقال: هل ستبقى هنا، أم ستنزل إلى بيشاور؟ قلت له: لا بد من أن أنزل إلى بيشاور.

كان ذلك في عز الشتاء. الثلج يغطي الجبال. كان علينا، لقطع الطريق إلى بيشاور، أن نمر عبر خمسة جبال، كل واحد منها يحتاج إلى مسيرة يوم ونصف يوم لعبوره. قلت له إنني سأسير إلى بيشاور. قال: لدينا دليل خاص بالجبال سأرسله معك، هو واحد من سكان المنطقة الجبلية ويملك خبرة في طريقة سلوك معابرها. وضعت حقيبتي على كتفي وتحركت.

استغرقت الرحلة تسعة أيام، كدت أقضي خلالها في الطريق، إذ حدث أثناء مسيرتنا انهيار ثلجي. كنا نمشي، ومجموعة من المجاهدين الأفغان تسير أمامنا. كان بيننا وبينهم قرابة ألف متر. وقع الانهيار في المساحة التي كانوا هم يسيرون فيها. رُدموا، ولم يُعثَر على جثثهم سوى بعد مرور ستة شهور، بعدما ذاب الثلج في فصل الصيف. ولو كنا نسير معهم لكنا لقينا حتفنا أيضاً.

وصلت إلى بيشاور فوجدتها في حال يُرثى لها في ظل غياب الشيخ عبد الله عزام. وقد لخّص حكمتيار الصورة على حقيقتها عندما قال: صرت أنظر إلى العرب يمشون في بيشاور كالأيتام بلا أب.

ساحة بيشاور

في تلك الفترة بالذات، بدأت أشعر بغربة في بيشاور. كانت المنطقة لا تزال في مأتم حداداً على الشيخ. لكن ذلك لم يمنع من ملاحظة أنها لم تعد تلك الساحة الروحانية التي تطوّع معظم من فيها لدعم القضية الأفغانية. تشعبت ساحاتها. ظهرت فيها مضافات جديدة، بعضها يحمل فكراً تكفيرياً. ظهرت مضافات أخرى كان لا همّ لأصحابها سوى التحريض على الجهاد الأفغاني بحجة أنهم مشركون وأهل بدع. ومن بين

من ظهر في تلك الساحة، فوجئت باسم «القاعدة». كنت أسمع كلاماً على «القاعدة» وأنها بزعامة أسامة بن لادن. كنت أعرف أن التنسيق العملي بين الشيخ عبد الله عزام وأسامة بن لادن توقف، لكن الصداقة والود بينهما لم يتأثرا. انفصل أسامة عن «مكتب الخدمات»، وصارت له «القاعدة» لوحده. لكن القطيعة لم تحصل بينه وبين الشيخ عزام، وظلا على احترام متبادل.

وكان حكمتيار يتبنى حملة دعائية ضد مسعود متهماً إياه بأنه عميل فرنسي ويفعل كذا وكذا. وكان العرب الذين يقتنعون بذلك تلحقني منهم الأذية بسبب قربي من مسعود.

وجدت نفسي في حالة صعبة جداً. لم يكن عندي مبرر لأن أبقى داخل أفغانستان. كنت أُفكّر منذ ١٩٩٠ في نفض يدي من هذا البلد. لم أُرزق الشهادة، والمجاهدون كانوا على قاب قوسين أو أدنى من الدخول إلى كابول، إضافة إلى تراجع البُعد المعنوي للقضية الأفغانية. ومع أصداء تأسيس الجبهة الإسلامية للإنقاذ (في الجزائر) وفوزها في الانتخابات البلدية في ١٩٩٠، بدأت أنقسم بين منطقتين: الجزائر وأفغانستان.

كل ذلك ساهم في تعزيز شعوري بضرورة مغادرة بيشاور. الشباب الذين كانوا معي في شمال أفغانستان لم يعد يربطني بهم «مكتب الخدمات». بقيت أنا في المكتب، بينما صاروا هم أعضاء في «القاعدة»، مثل قاري سعيد وأبو عبيدة البنشيري ومجموعة أخرى من الشباب. وعلى هذه الخلفية، لم تكن لي صلة بـ «القاعدة» ولم أُدع إلى الانضمام إليها. فهم يعرفون أن دعوتي ميؤوس منها، لأنني عنصر رئيسي في «مكتب الخدمات».

الفصل الثامن

من كابول... إلى بريطانيا

عندما خرج الروس عام ١٩٨٩ بقيت أمام المجاهدين التركة الثانية؛ تركة الشيوعيين وحكومتهم بقيادة نجيب الله، وهذا الأخير لم يكن رئيساً يُستهان به. كانت للرجل منذ أيام الجامعة وأيام الطلبة، هيبته ومكانته، حتى وإن كان شيوعياً. كان خطيباً مفوّهاً، وعلى جانب من الذكاء لا يستهان به، كما يصفه عارفوه. لم يكن شخصاً عادياً. فهو على رغم خروج الروس وما أحدثه ذلك من انكسار في معنويات الحزبيين الشيوعيين في أفغانستان، استمر في الحكم يقاوم ثلاث سنوات، والبلد كله خارج عليه، مما يدل على أنه لم يكن هيّناً وسهلاً، على رغم أنه شيوعي، وعلى باطل.

لعب أوراقاً كثيرة: ورقة التفاوض مع باكستان مباشرة، وورقة إعلان وقف إطلاق النار من أجل حقن الدماء. وأعلن بعض المراسيم، بينها إعادة الاعتبار إلى الدين الإسلامي والعمامة، وتخصيص مساجد في كل المؤسسات الحكومية. لعب أوراقاً عدة سمحت له بالبقاء في الحكم ثلاث سنوات أخرى.

لكن سقوطه في النهاية كان حتمياً. وشهدت الأيام والأسابيع التي سبقت هذا السقوط سباقاً بين مسعود ومبعوث الأمم المتحدة الذي كان يحمل طرحاً لحل المشكلة بإقامة حكومة موسعة يشترك فيها نجيب الله من

الداخل بنسبة معينة، والقيادات الموجودة في الخارج بمن فيهم المجاهدون الأفغان. ولقي هذا الطرح موافقة نحو ٨٠ في المئة من مختلف الأطراف. وطلب المبعوث الدولي من المجاهدين أن يعيّنوا ممثلين لحضور جلسات لتسهيل ترجمة هذه الفكرة التي كانت، من الناحية المبدئية، مقبولة، إلى واقع. ووافق عليها برهان الدين رباني ويونس خالص، لكن عبد رب الرسول سياف اعترض عليها ودخل جلال آباد بغية التحضير لمقاومة هذه الحكومة التي تأتي من الخارج. لكن حكمتيار ومحمد نبي وغيلاني ورباني كانوا موافقين عليها.

في ذلك الوقت تحديداً، بدأت الأنباء تأتي من داخل أفغانستان عن انهيار النظام في يد أحمد شاه مسعود. بدأ الانهيار في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢ عندما تمرد الجنرال عبد المؤمن المسؤول عن المنطقة الحدودية؛ حيرتان ـ الجسر الرابط بين الاتحاد السوفياتي ومزار الشريف والممر الذي تدخل عبره معظم الإمدادات للنظام ـ. والجنرال عبد المؤمن هو المسؤول عن هذه المنطقة، وقد أرسل إليه مسعود فوراً رسالة يقول فيها: «أنا فتتك التي تأوي إليها»، أي اعتبر نفسك بحمايتنا. وبعد شهر سقطت ولاية سامنغان، الولاية الثانية في الشمال الأفغاني. وفي ١٨ آذار/ مارس هاجم المجاهدون ولاية مزار الشريف مستغلين الانهيار.

وفي ٢٠ آذار/ مارس، اجتمعت كل الفصائل في ولاية مزار الشريف وأعلنت سقوط الولاية نهائياً في أيدي المجاهدين. واستمرت الأوضاع على هذه الحال إلى ١١ نيسان/ أبريل، يوم تلقى نظام نجيب الله ضربة لا تقل خطورة عن تمرد الجنرال عبد المؤمن. إذ سقط ممر سالانغ في يد مسعود. وهذا الممر كان شريان الحياة الثاني للنظام، بعد حيرتان. بعد ذلك بثلاثة أيام سقطت قاعدة باغرام الجوية، أكبر قاعدة عسكرية في البلاد بيد مسعود أيضاً. . . وهكذا بات المجاهدون على بعد ٧٠ كلم عن كابول.

واكب هذه الأحداث كلها صراع رهيب في إسلام آباد على الحل

السياسي بقيادة الأمم المتحدة وموفدها بينان سيفان، حتى أطلقت الصحافة الباكستانية آنذاك شعارها الشهير: من يسبق، حصان بينان سيفان أم حصان أحمد شاه مسعود.

بعد ذلك بيومين، جاء عبد الوكيل، وزير خارجية حكومة نجيب الله، في طائرة هليكوبتر، واجتمع بمسعود وقال له: «قررنا تسليمكم السلطة. لكنْ لنا شرط واحد، وهو أن تعتمدوا أحزابنا الشيوعية في ظل حكومتكم». فأجابه مسعود: نحن لم نجاهد خمساً وعشرين سنة من أجل أن نعترف بأحزاب شيوعية؟ نحن على أبواب كابول. إما أن تسلّموا السلطة وإما أن ندخل بالقوة. فقال عبد الوكيل: أعطني فرصة يومين لأعود إلى كابول وأناقش الأمر مع «الرفاق». وعاد بالفعل إلى العاصمة في ١٦ نيسان/أبريل، أي في يوم مجيئه نفسه. بعد المغرب، جمع نجيب الله أعضاء حكومته وأبلغهم أنه سيذهب إلى مقر الأمم المتحدة في كابول ويلجأ إليه، معلناً تخليه عن الحكم في ١٦ نيسان/أبريل.

كنت أُتابع كل تلك التطورات من بيشاور باللاسلكي مع مسعود. لم يكن أحد يُصدّق ان الانهيار في كابول قد وقع. كنت أذهب إلى الأصدقاء وأقول لهم إن مسعود أخبرني أن النظام سقط وأنه على أبواب العاصمة، لكنهم كانوا يرفضون التصديق ويتهمونني بالمبالغة.

طلب عبد الوكيل من مسعود أن يمهله يومين ليعود بالجواب. لكنه لم ينتظر يومين. ذهب في ١٦ نيسان/أبريل وعاد في اليوم التالي مباشرة إلى مسعود. وعندما نزل من الهليكوبتر رفع يده والبسمة على شفتيه. وقال لأسد بنجشير إن «النظام الذين تقاتلونه استسلم لكم نهائياً. كنا ننتظر منكم أن تسمحوا لنا بأحزاب، لم نعد نريد ذلك. لم تعد هناك حكومة في كابول».

وأخبر مسعود زعماء المجاهدين في بيشاور أن النظام سقط. لكنهم كانوا يرفضون التصديق. وتحدث إليه باللاسلكي برهان الدين رباني ويونس

خالص وصبغة الله مجددي، فقال لهم إن النظام «خلاص سقط»، و«لا داعي لكي تتابعوا جهودكم عبر الموفد الدولي. النظام في كابول يسلّم إليكم السلطة».

لكن التنافس كان دائماً بين مسعود وحكمتيار، وهما الوحيدان اللذان كانا يملكان اتصالات داخل أجهزة النظام. وعندما سمع زعيم الحزب الإسلامي بالخبر طار مباشرة إلى لوغر، وهي ولاية حدودية مجاورة لكابول، على رغم أنه كان موافقاً في بيشاور على مناقشة مشروع تشكيل حكومة موسعة، ولم يكن يعرف أن النظام في كابول انهار. لذلك فوجئ وتوجه فوراً إلى لوغر حيث كان هناك جنرال يرتبط به هو الجنرال رفيع، نائب الرئيس نجيب الله وسأله عن الوضع فأجابه بـ «أن جماعة مسعود كانت أول الداخلين إلى كابول، وأن النظام قد انهار».

في تلك الفترة وصلت مجموعة من العلماء والدعاة من العالم الإسلامي، لأن الأمر عظيم، وبالتالي قد يحدث اقتتال وفتن كبرى. جاءت المجموعة للمشاركة في تخفيف المفاسد التي يمكن أن تحصل. وقام اتفاق على تعيين صبغة الله مجددي (رئيس حزب الإنقاذ الوطني) رئيساً مؤقتاً لمدة ستين يوماً، ويخلفه برهان الدين رباني لأربعة شهور، على أن يكون وزير الدفاع أحمد شاه مسعود، وحكمتيار رئيساً للوزراء، وإعطاء وزارة الداخلية للاتحاد الإسلامي الذي يتزعمه سياف، وهو عهد بالوزارة إلى أحمد شاه أحمد زي لأنه عضو في الاتحاد الإسلامي. كما تم إعطاء وزارة الخارجية لغيلاني. لكن حكمتيار لم يرض بالتشكيلة. وتوجه إلى لوغر لعله يستطيع أن يُحرز نصراً بمفرده في داخل كابول. وعندما وصل إلى العاصمة كانت الخطة التي اتفق عليها المجاهدون قد اهتزت، لأنها كانت تقضي بأن يدخل المجاهدون يداً واحدة إلى كابول وتكون الوزارات السيادية قُسّمت بين الأحزاب الرئيسية. عندما وصل حكمتيار إلى لوغر كان وفد المصالحة (ضم الشيخ الصياف العالم العراقي والشيخ محمد قطب ومجموعة من العلماء المقيمين في السعودية) قد فشل في إقناعه.

من ١٩ نيسان/أبريل إلى ٢٣ منه، أقام مسعود على مشارف كابول لا يريد دخولها فيكون ذلك سبب مفسدة بين المجاهدين. كانت ساقطة أصلاً، ونجيب الله مقيم منذ عشرة أيام في مبنى الأمم المتحدة، والدولة بلا رأس ومستسلمة ترفع الأعلام البيضاء. وكان مسعود يحاول في تلك الفترة إقناع قادة المجاهدين بتشكيل حكومتهم. ظلوا خمسة عشر يوماً حتى صدّقوا أن العاصمة سقطت وشكّلوا حكومتهم. ودخل أول وفد كابول برئاسة صبغة الله مجددي في ٢٧ نيسان/أبريل. من ١٦ نيسان/أبريل إلى ٢٧ منه وكابول مثل العروسة تنتظر مسعود، لكنه رفض دخولها لئلا ينفرد بالنصر وحده. أراد أن يعطي هذا النصر للمجاهدين في ساحة بيشاور وأن يدخلوا كلهم متفقين يداً واحدة لئلا تسيل الدماء بينهم. فلو استفرد واحد منهم بها لأوغر صدور الآخرين وأثار فيهم الحسد. كان شرفاً يتوق إليه كل واحد منهم، لكن هذا الشرف قد يتحوّل إلى مفسدة وتسيل بسببه الدماء.

في ٢٣ نيسان/أبريل استدعى حكمتيار إلى لوغر الجنرال رفيع، وسأله: ما الأمر؟ فأجابه: جماعة مسعود أخذت كل شيء. فسأله: هل يمكنك تدارك الأمر؟

عندما اشتد الخلاف بين حكمتيار ومسعود، طرحت فكرة مفادها، أن يتمّ ترتيب اتصال لاسلكي بين مسعود وحكمتيار كي يتمكّنا من الحديث مباشرة ومن دون وسيط علّ ذلك يرفع اللبس الحاصل بينهما. جاءني وائل جليدان وقال: ها أنت ترى وفد العلماء فشل في إقناع حكمتيار بالانضمام إلى وفد الدولة التي شُكلت في بيشاور، وتوجه إلى لوغر ليقاتل وحده علّه يستفرد بكابول، وقد شُكلت الحكومة وهو رئيس للوزراء فيها. لا شيء أمامنا نفعله. أتمنى لو كنت تستطيع أن تصل باللاسلكي بين مسعود وحكمتيار، وتفسح لهما المجال لكي يتكلّما معاً مباشرة لحل المشكلة. كانت هذه فكرة وائل. اتصلت بمسعود وقلت له: هل يمكن أن يتكلم معك حكمتيار باللاسلكي. وجرت المكالمة بينهما

وكنت أستمع إليها في مركز اللاسلكي التابع لمسعود في بيشاور، كما كان القاضي حسين أحمد شاهداً على المكالمة بينهما. (راجع الملحق رقم ١)

عندما دخل رئيس الوفد الأستاذ صبغة الله مجددي كابول بناءً على الاتفاق الذي أُبرم بين زعماء الجهاد في بيشاور وكان برفقته وفد من جميع المجاهدين، تحركت قافلته نحو العاصمة في ٢٧ نيسان/أبريل. وبات ليلة في إحدى القواعد العسكرية في جلال آباد آمنا بعد مرور اثنتي عشرة سنة من المعارك الضارية، ليتوجه في اليوم التالي إلى كابول حيث أجريت مراسم نقل السلطة إليه في وزارة الخارجية الأفغانية.

وفي الثاني من أيار/مايو تشكلت حكومة المجاهدين الجديدة. في الخامس من الشهر نفسه، دخل وفد المجاهدين في موكب مهيب على رأسه زعماء الجهاد يتقدمهم كل من، برهان الدين رباني، عبد رب الرسول سياف، يونس خالص، محمد نبي محمدي، محمد غيلاني، وتغيب عنه حكمتيار بسبب ذهابه إلى لوغر ليدخلها «فاتحاً» وحده. وأعلن أنه إذا قبل برئاسة صبغة الله مجددي لمدة ستين يوماً فلمَ لا يقبل برئاسة بوش. ولم يدخلها إلا بعد عامين. ولا يفوتني هنا أن أسجل هذه العبرة لقوله (ﷺ): السعيد من اتعظ بغيره والشقي من يتعظ بنفسه. فعلى كل مسلم أن يتعض بما حدث بين المجاهدين بعد دخولهم كابول، فبعد مقاومة شرسة ونضال شريف طوال هذه السنوات أخرجوا من أرضهم الاتحاد السوفياتي، أقوى قوى الأرض تسليحاً، إلا أن المقاومة الشرسة لم تصمد عندما واجهت اختبار المرحلة الثانية وهي مرحلة البناء. فمرحلة المقاومة قد يشارك فيها أي إنسان بعكس مرحلة البناء، فهي تحتاج إلى العقلاء والنزهاء، لأن العقل من دون نزاهة ومقاومة للشهوات عبارة عن انتهازية ووصولية، والنزاهة من دون عقل وتدبير عبارة عن تهور وعشوائية قد يعصفان بكل الإنجازات. ولقد تعلمت أن الاستقرار السياسي أعمق وأثبت في بناء المجتمعات، وأكثر ضماناً من الحسم العسكري، لأن الحياة السياسية مستقرة ثابتة، والحياة العسكرية متغيرة ومؤقتة. وعلى الأمة، وعلى رأسها الطبقة

السياسية، أن تعمل من أجل ضمان الاستقرار السياسي، وعليها أن تتعلم سياسة التوافق. فمن أراد الرغيف وحده أضاعه كله.

فها هم المجاهدون الأفغان بعد أن دخلوا كابول فاتحين، تركوها مطرودين، بين لاجئ في إيران ومشرّد بين بدخشان وطاجيكستان، ومحاصَر بين شعاب الجبال. فهل يعي الأفغان والمسلمون هذا الدرس؟

ساحة بيشاور بعد ٩٢

بعد أن دخل المجاهدون كابول وبدأت مؤشرات الاقتتال بينهم تلوح في الأفق، كانت ساحة بيشاور تعج بالعجائب والغرائب، فباتت ساحة موبوءة، وتفرّق فيها العرب المتطوعون إلى جماعات كثيرة.

فلقد اجتمع الشباب المنتمون إلى حركة الإخوان المسلمين عند عبد رب الرسول سياف، بينما اجتمع السلفيون في منطقة كونر عند الشيخ جميل الرحمن مؤسس السلفية في أفغانستان. ولم يسلم «مكتب الخدمات» من هذا التشتت، فانقسم بدوره إلى قسمين، وحصل تحالف بين جماعة الجهاد وأسامة بن لادن، أسفر عن تأسيس جماعة «القاعدة». ونصب أحد الأردنيين خيمة يخطب فيها يوم الجمعة، في بعض الشباب، وأعلن عن تنظيم اسمه «جيش محمد»، ثم غادر الساحة فجأة ليستلم وكيل وزارة في بلده. بينما أعلن أردني آخر عن نفسه خليفة للمسلمين وأن هذه الجماعات والمضافات آثمة إذا لم تبايعه. ولم تكن الأجهزة الاستخباراتية العربية غائبة عن الساحة الأفغانية، فلقد جاءني أحد الشباب في يوم من الأيام بإحضار جواز سفر صاحبه برتبة نقيب، وجوازه صادر قبل سنة فقط. كما جاءني يوماً أحد الأخوة، «وائل جليدان»، أمين وقف الرابطة، وهو الرجل الذي يعود إليه الفضل، بعد الله عز وجل، في زواجي من كريمة الشيخ عزام، ودخولي في هذه العائلة الكريمة التي كانت تمثل عندي استراحة المجاهد، طيلة الأيام التي كنت أقضيها في بيشاور، وخاصة ربّة ذلك البيت المجاهدة الداعية أم محمد عزام زوجة الشيخ. ولقد أدركت بعد أن تعرفت إليها عن

قرب بحكم مصاهرتي لها، أن الإنجاز الكبير الذي أنجزه السيخ لم يكن قادراً على إنجاز معظمه لولا تلك المساندة اللامحدودة التي كان يتلقاها منها، إذ حباها الله بخصال حميدة. فقال لي: يا أخي عبد الله، ها أنت ترى ساحة بيشاور كيف تحولت إلى ساحة لا تطاق. فأنا قررت نقل عملي إلى إسلام آباد، ولا أنصحك بالبقاء هنا. يمكنك الرحيل إلى إسلام آباد. أعجبتني الفكرة، وانتقلت إليها إلى حين أن أتمكن من مغادرة أرض باكستان.

دور الاستخبارات الأميركية مع مسعود؟

الإمدادات التي كانت تصل إلى مسعود كانت هي نفسها التي تصل إلى جميع الجبهات، لأن مركز الإمداد كان واحداً: مخازن الجهاد في بيشاور، حيث القيادة السياسية للأحزاب الأفغانية (الحزب الإسلامي والجمعية الإسلامية والاتحاد الإسلامي). مخازن السلاح الخفيف أو الثقيل مثل المدفعية، كانت كلها في بيشاور تحت إشراف الـ «آي أس آي» (الاستخبارات العليا الباكستانية)، التي كانت توزع وتحدد الحصص بين مسعود وحكمتيار وحقاني وصبغة الله مجددي وإسماعيل خان. كانت تُحدد حصصهم بالتنسيق مع زعماء الجهاد الأفغاني في بيشاور. وكان مسعود في عداد هذه التشكيلة، ونصيبه من باكستان كان مثل نصيب غيره.

لم أعلم، حتى تاريخ خروجي من أفغانستان، ما كان يشاع عن تحرك لـ «سي آي أيه» (الاستخبارات الأميركية)، وهل كانت هذه مرتبطة بالجهاد من خلال حلقة غامضة ليست معروفة. لست أدري. لكن المعروف والواضح هو أن المخازن الكبرى للجهاد كانت في مخازن الجيش الباكستاني في بيشاور.

مسعود والاستخبارات الباكستانية

استطاع مسعود، على حد علمي، أن يجد له بعض الأنصار داخل الدوائر الفرنسية. كما استطاع أن يُقنع بعض الجهات داخل الحكومة

الفرنسية بتسهيل نشاطه. أما الدعم فلم أره إطلاقاً. لم أر أي دعم له من فرنسا، لا عسكرياً ولا غير عسكري، اللهم إلا إذا كان هناك دعم سري لا أعرفه. لكنني، كشاهد عيان ملتصق بالرجل طوال سبع سنوات، أربعاً وعشرين ساعة يومياً، لم أرَ شيئاً وصله من فرنسا، اللهم إلا زيارات يقوم بها بعض الصحافيين الفرنسيين من حين إلى آخر، كل ثلاثة أو أربعة أشهر، لإجراء مقابلة معه أو تصوير معركة من المعارك. ولم تكن هذه اللقاءات مقتصرة على الصحافيين الفرنسيين فقط، إذ كانت هناك وفود صحافية من بريطانيا وأميركا وألمانيا واليابان وسويسرا. رأيت وفوداً كثيرة من الصحافيين والباحثين الأوروبيين تقصده. وكانت له إلى يوم اغتياله صداقات مع بعضهم في أوروبا.

عندما دخلت كابول، كنت من أوائل العرب، حتى إنني سبقت وفد المجاهدين إليها، لأنني كنت على اتصال مع مسعود باللاسلكي. دخلت مع مسلم؛ أحد قادته. دخلنا بسيارة. بعد ذلك بدأت أتهيأ نفسياً لمغادرة أفغانستان نهائياً، لأنني لم أعد أرى مبرراً لوجودي في هذه المنطقة.

كان العلماء يقولون إنه فرض علينا أن نقف مع إخواننا في أفغانستان، فوقفنا معهم. وها إن الروس قد خرجوا، والنظام الشيوعي قد سقط. لذلك بدأت أنظر إلى جدوى وجودي هناك. لم أعد مقتنعاً بالبقاء، خصوصاً أنني كنت نزلت سنة ١٩٩٠ إلى الجزائر وسُجنت هناك أربعة أيام على رغم أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ كانت في أشد عنفوانها، وكانت قادرة على تحريك الشارع الجزائري كله. ومع ذلك لم يشفع لي ذلك أمام المخابرات الجزائرية فسُجنت أربعة أيام وحُجز جواز سفري لمدة شهر. وكان الشيخ عباسي مدني قال لي في إحدى الجلسات بيننا: يبدو أن دورك في أفغانستان قد انتهى، ويجب أن تبدأ رحلة العودة إلى بلدك الجزائر.

كانت الفكرة تطرق ذهني منذ ١٩٩٠. وعندما دخل المجاهدون كابول في ١٩٩٢، صارت قضية مغادرتي أفغانستان قناعة راسخة، على

رغم أنه لم يكن ينقصني شيء لو بقيت هناك. كان مسعود الرجل القوي في الحكم الجديد الذي ورث نظام نجيب الله. لم تكن تنقصني سيارة أو بيت. وأذكر أنني قصدت مسعود يوماً وكان يسكن في منزل في العاصمة، وأسريت إليه أنني أفكّر في نقل أولادي من بيشاور إلى كابول، فلم يتردد لحظة وقال: هذا البيت بيتك سأخليه لك لتقيم فيه. وتابع ممازحاً: ولكن لا بد لك من أن تأخذ حذرك فحكمتيار يستهدف هذا البيت بصواريخه، لأنه قريب من قصر الجمهورية. وبرغم كل هذه الامتيازات التي كنت أملكها وأحصل عليها في أفغانستان قررت مغادرتها. الوجهة الثانية لسفري، بعد الإقامة المؤقتة في باكستان، كانت فرنسا. فأعددت العدة وسافرت إلى هذا البلد الأوروبي بعدما حصلت على تأشيرة من كابول بوساطة من السفير الفرنسي هناك. ذهبت إلى باريس بإقامة قابلة للتجديد كل ثلاثة شهور، على اعتبار أنه لا يمكنني الرجوع إلى الجزائر لأن الأزمة بدأت فيها بسبب الانقلاب العسكري. لكنني، للأسف، أقمت في فرنسا ستة شهور قبل إخراجي منها. كبّلوني بالحديد بدعوى أنني أشكل خطراً على أمن بلادهم. أخرجوني منها مكبّلاً إلى باكستان. وبعد بضعة شهور، اتصل بي الشيخ عبد الباقي صحراوي، رحمه الله، وهو عضو مؤسس في الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وقال لي إنه التقى مسؤولين في السلطات الفرنسية، وهم يعتذرون، وقد أخطأوا بحقي عندما قالوا إنني أشكّل خطراً على أراضيهم الفرنسية. ونقل لي عنهم أنه يمكنني العودة في أي وقت، ويمكنني الحصول على تأشيرة من أي سفارة من سفارات فرنسا. لكن ما حزّ في نفسي أنهم أخرجوني مُكبّلاً والأصفاد في يدي، لذلك لم أستسغ العودة. وهآنذا أعيش الآن في بريطانيا التي أقدم لها شكري على إيوائها لي ولعائلتي وعشرات الآلاف من الجزائريين الذين دفعهم قمع النظام العسكري الجزائري إلى اللجوء إليها.

ملحق رقم ١
حوار لاسلكي بين مسعود وحكمتيار

حكمتيار: أريد دخول كابول بالدبابات

مسعود: ترتكب خطأ تاريخياً... وستكون الحرب

في ما يأتي ترجمة(*) المكالمة عبر جهاز الاتصال العسكري بين أحمد شاه مسعود وقلب الدين حكمتيار. وتمحور الخلاف بين الرجلين حول الحملة العسكرية التي أعدها حكمتيار في ٢٣ نيسان/أبريل عام ١٩٩٢، لدخول كابول:

مسعود: إنكم تحضّرون، بحسب معلوماتي، لشن هجوم على كابول. ما هي أهداف هذا الهجوم، ولماذا ستقومون به؟ السوفيات ذهبوا (من أفغانستان)، وحكومة نجيب الله سقطت. ومن المقرر أن تنتقل السلطة إلى قادة المجاهدين. فلتجتمعوا أنتم القادة، ولتتوصلوا إلى اتفاق، وعندها تنتفي الضرورة لشن هذا الهجوم الذي تحضرونه ضد كابول.

حكمتيار: إنني أعدّ للهجوم على كابول لأن فيها بقايا الشيوعيين وبقايا النظام السابق، وأنا لا أستطيع تحمل وجود هؤلاء في العاصمة.

(*) تولّى ترجمة نص المكالمة من الفارسية الزميل محمد نون في طهران.

مسعود: الأمر صحيح، ولا يمكن إنكاره، وأنت على حق، لكن النظام السابق سقط واستسلم، فلتجتمعوا أنتم وسائر القادة، ولتتوصلوا إلى اتفاق في شأن الحكومة المقبلة. وليس هناك أي نوع من الشروط لبقاء بقايا من النظام السابق في الحكومة المقبلة. حددوا أنتم بالاتفاق مع سائر القادة، تركيبة الحكومية الجديدة، ولا ضرورة للحملة على كابول؟

حكمتيار: لا، أنا أريد مع رفع أصوات التكبير (الله أكبر) أن أرفع الأعلام الخضر فوق كابول وأنشر فيها الدبابات القتالية.

مسعود: رفع صوت التكبير والأعلام الخضر أمر جيد، ولكن ما هي الضرورة للدبابات؟ النظام السابق استسلم، وإذا كان هناك حديث عن الدبابات، فقد كان الأجدى أن تأتي بها قبل شهر، لتجبر النظام على الاستسلام. أما الآن بعدما استسلم النظام السابق، ووصل المجاهدون إلى تحقيق النصر، فما الحاجة إلى الحرب؟

حكمتيار: سأهاجم كابول.

مسعود: لقد هددتم ببدء شن الحملة العسكرية على كابول يوم الأحد. وإنني، كما قلت في السابق، أؤكد بصراحة أنني أخشى أن تؤدي حملتكم عليها إلى قتال عنيف بين المجاهدين أنفسهم، وأن يؤدي دخول قوات أحد التنظيمات، إلى إتاحة الفرصة أمام فئات ومجموعات مختلفة للانتشار في العاصمة. عندها ستعم الفوضى في كابول، وستصبح الأوضاع في حال تشنج بشكل سريع يؤدي إلى الخراب والدمار. وإنني على يقين من أن نزاعاً بين المجاهدين سيقع. وأتمنى عليكم أن تفكروا ملياً في هذا الموضوع، وأن تتحدثوا مع بقية القادة، لأنه كما أوضحت لكم ليست هناك أي مؤامرة، والجميع قَبِل وأعاد تأكيد قبوله بالحكومة الانتقالية، ومن الأفضل الإفادة من هذه الفرصة القليلة، لخطو خطوات مؤثرة على طريق منع الحرب، وتأمين الأمن للمجتمع بدل الاهتمام بالقضايا العسكرية. وهذا عمل لا يخلو من الخير. والقلق هو أن يفيد

الانتهازيون والأعداء في الداخل والخارج من وقوع الهجوم على كابول، لتأزيم الأوضاع فيها، فيزرعوا الحقد في أوساط الشعب ضد المجاهدين مما سيؤدي إلى توجيه ضربة إلى وحدتنا الوطنية الإسلامية التي تجلت في سنوات الجهاد. فلا ترتكبوا مثل هذا الخطأ التاريخي، إذ إنه قد يكون خطأً لا يقبل التصحيح، وسيثير الشبهات حول كل تاريخ الجهاد (في أفغانستان).

إن زمام الأمور هو الآن في أيدي المجاهدين والشعب الأفغاني، فلماذا لا نجلس بعضنا إلى بعض ونضع حلولاً للمشاكل القادمة، ثم نذهب بعدها لإجراء انتخابات والقيام بإعادة الإعمار؟ من الأفضل أن تعطيني (أي حكمتيار) تطمينات الآن، إلى أنه لن تكون هناك حملة على كابول يوم الاثنين، وأنا أكدت لك أنه لن تكون من جانبنا أي حملة، وستتابع بقية أعمالنا.

حكمتيار: أنا عرضت موقفي الحازم الذي أبلغته إلى كل الجبهات، وقد بنيت قراري هذا على دراسة دقيقة. وما لم تتغير الظروف حتى يقتنع كل واحد من المجاهدين بعدم ضرورة الحملة (العسكرية)، فإن من المحتمل أنني لن أستطيع تعديلها أو تأجيلها (الحملة).

مسعود: في الوقت الذي أقول إن القتال لن يحصل، أقول أيضاً الآن إن قتالاً شديداً سيحصل وقد يأخذ شكل الحرب التي تُزهق فيها أرواح مئات المسلمين وتسيل دماؤهم. وإنني أقول منذ الآن إن الله لن يؤاخذني حتماً، ولن يؤاخذني الشعب الأفغاني المسلم ولا المجاهدون. لم أطلب الحصول على أي شيء لنفسي، ولن أطلب ذلك، وليست لدي مطالب في هذا الشأن، إذ إن كل شيء لدينا سلمناه إليكم أيها القادة الكبار...

حكمتيار يقطع كلام مسعود: لقد سمعت كلامك وعرضت لكم موقفي.

مسعود: حسناً، معنى ذلك أنكم ستشنون الحملة يوم الأحد، وأنّ عليّ الاستعداد.

حكمتيار: لأي شيء تريد الاستعداد؟

مسعود: الاستعداد للدفاع عن شعب كابول، عن نسائها ورجالها وأطفالها وفتيانها؛ الاستعداد للدفاع عن هذا الشعب المظلوم الذي يلجأ كل يوم إلى الله، ويسأله عن المصير والمستقبل. إنني مُجبَر على الدفاع عن هذا الشعب ضد أي حملة، وبكل ما لدي من قوة. لقد تركت كل شيء جانباً، وقلت إنني لا أطلب أي امتياز. والآن المشكلة هي مشكلتكم أيها القادة. فلتجتمعوا في ما بينكم وتتوصلوا إلى تفاهم. فعلى رغم أننا لا نريد أي مطالب أو امتيازات، فإنكم (أي حكمتيار) تقولون إن موعد الحملة العسكرية على كابول سيبقى على حاله يوم الأحد.

إنني أقول لكم منذ الآن صراحة، إنني مضطر إلى الابتعاد عن جهاز الاتصال (أي يترك التخابر) لأقوم بتحضير الترتيبات الدفاعية، وإنني مُجبَر على القيام بمجموعة من التصفيات في بعض الأماكن. وإنني أكرر ثانية أنني لست مضطراً أمام الله لأن أُسأل لماذا أقوم بهذا العمل. وإنه لأمر جيد أن قاضي صاحب (قاضي حسين أحمد قائد الجماعة الإسلامية الباكستانية وحامي حكمتيار) يسمع ما أقول، وهو شاهد على ذلك.

ملحق رقم ٢

الرسالة التي وجهها الدكتور عبد الله عزام
إلى الأخ/ أحمد شاه مسعود (أسد الشمال) بعد عودته من شمال أفغانستان

الأخ/ الحبيب أحمد شاه مسعود حفظه الله ورعاه...

أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، وأصلي وأسلم على نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد...

أيها الأخ العزيز: لقد منّ الله عليك بتوفيق لم يحظ به غيرك إلا القليل، ولقد كان التأييد الرباني والتسديد الصمداني الذي واكب مسيرتك وحالف جادتك طوال السنوات الماضية التي قاربت عقداً ونصف عقد، أكبر دافع لك لأن تشكر نعماءه وأن تذكر آلاءه، (وليس منك وليس لك شيء) إنما هو من الله وإلى الله:

﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ [هود: ١٢٣].

﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون الله قل فأنى تسحرون﴾ [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٩].

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: ٨٢].

أخي الحبيب:

إن لله سُنناً وقوانين تجري على خلقه أودعها الله - عز وجل - في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، وهذه القوانين لا تتخلف ولا تتبدل، ومن هذه القوانين:

﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [محمد: ٧].

ومن هذه القوانين كذلك:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالإعداد يؤدي إلى رهبة العدو. وقد أخذتَ من هذه القوانين بطرف، فأعطاك الله ثمار هذا الاتباع.

لقد أعددتَ فرهبك أعداؤك، وهذا فضل من الله ونعمة. ومن هذه القوانين أيضاً:

﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦].

فلا بد من الانتباه إلى هذا القانون، وخاصة أننا على أبواب كابول ننتظر النصر أن يتنزل من عند رب العالمين. فحاولْ ما استطعتَ أن تنسق مع إخوانك، وأن تلتقي معهم على قاعدة مشتركة. وإياك من الاختلاف الذي يؤدي إلى ضياع ثمار جهادكم وذهاب قوتكم وتشتت شأنكم وجمعكم. وإياك إياك من الانفراد بحل القضية، أو الاستئثار بفتح كابول، أو التفرد بالغنائم، فهذا يورث العداوة، ويجعل البلد كله على فوهة بركان. وإن إخوانك يرون أنك قد غبنتهم حقهم، وبغيت عليهم.

وإنما يكثر الخلاف على الغنائم بعد النصر، (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا).

وإنما يكثر التحاسد والتباغض والتنافس عندما يكثر المال، ويفيض الخير، وتسيل الغنائم. وإذا كان أهل بدر قد اختلفوا على الغنائم فما بالك بقومك الذين لم يحظوا بقسط وافر من التربية، ولم يجدوا اليد الحانية الراعية المعلّمة لهم؟!

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه (نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فنزع الله الأنفال من أيدينا وجعلها لرسول الله فقسمها على بواء ـ يعني السواء ـ)(*).

أخي العزيز:

لقد كان للزيارة التي قمنا بها إليك أطيب الأثر وأعمقه في قلوبنا. ولقد تركت في أغوار نفوسنا ارتياحاً كبيراً، وفي صدورنا انشراحاً عظيماً.

ولقد وقفنا على آثار جهادكم المبارك في بنجشير خاصة، فأدركنا الجهد الكبير والعناء العظيم اللذين كابدتموهما في مواجهة الروس، وما كان إذلال روسيا وهزيمتها إلا بفضل الله العظيم، ثم بأمثال هذه الجهود الضخمة التي بُذلت منكم ومن إخوانكم المجاهدين في أنحاء أفغانستان كلها.

فما اقتربتم من النصر إلا على بحور الدماء، وما ارتفعتم إلى قمة المجد إلا على تلال الأشلاء وجبال الجثث والجماجم والشهداء.

ولا يبني الممالكَ كالضحايا ... ولا يدني الحقوقَ ولا يحقُّ

ففي القتلى لأجيال حياةٌ ... وفي الأسرى فدى لهم وعتقُ

(*) رواه الإمام أحمد وهو صحيح.

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرَّجة يُدَقُّ

أخي الحبيب:

وكان من أعمق ما رأيت أثراً في نفسي، تلك الفئة الطيّبة التي جمعتّها حولك، والصفوة الفاضلة التي أوكلت إليها كثيراً من آرينبور وسارنوال محمود، ووكيل باسم الله، وسيد يحيى ومسلم وقبلهم بناه ووجدا، وأمير مجاهد وسر معلم طارق وإكرام الدين، والكثيرين ممن رأيت حولك وتعلّقَ القلب بهم، ولا يتسع المجال لسرد أسمائهم، كل واحد باسمه، ولا أنسى شاه محمد والي طالقان، وتاج الدين حارسك.

أخانا العزيز:

نوصيك أيها الأخ الحبيب بتقوى الله، وتلاوة القرآن، وحب الصالحين، وحفظ اللسان، والصبر على إخوانك، ودع أذاهم. ونوصيك بحسن الظن بالمسلمين، وبالإخلاص لله في كل حركة وكلمة وضربة وتقدم. ونوصيك بقيام الليل، وصيام الاثنين والخميس، وكثرة الذكر. ولا تنسَ أيها الأخ العزيز الهدف الذي قمتم من أجله منذ اليوم الأول، ولقد ذكرت لي وأشهدتَ الله على قولك (أنكم ما قمتم إلا لله ـ عز وجل ـ ومن أجل نصرة الإسلام ورفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله. وذكرت أننا ما قمنا حتى لتحرير أفغانستان، ما قمنا إلا لله ولدينه. ثم ذكرت أننا لو قمنا لغير الله لما استطعنا أن نبذل هذه التضحيات، ولا أن نحتمل هذه الخسائر). فليبق الهدف هو الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، نصب عينيك، وإياك إياك أن تتجاوز الهدف أو تتنازل عنه وأنت ترى بعض المتسابقين على الدنيا:

﴿فاصبر إن وعْدَ الله حق ولا يستخفنَّك الذين لا يوقنون﴾.

ولا يحملنك ارتكاب الآخرين لمخالفات شرعية أو لتجاوزهم لأوامرَ ربانية، أن تفعل كما فعلوا، ولا يحدثنَّ هذا عندك رد فعل، فتقابل السيئة

بالسيئة، وتتنازل عن مبادئك. فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن. ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا أن تجتبنوا إساءتهم.

إني لأعلم صعوبة الموقف في داخل أفغانستان، وفي مثل هذه الظروف. والكل يحمل السلاح بيده، ولكنك قد صبرت عشر سنوات، فليكن فوقها عشرة أشهر.

إن هذا الجهاد الإسلامي قد قام منذ اليوم الأول لإقامة دولة إسلامية، وهذا هو الصواب الشرعي الذي يجب أن تنصبَّ عليه جهود المسلمين عامة، وجهود الجهاد الأفغاني خاصة، لأن الله ـ عز وجل ـ يقول:

﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ [المائدة: ٤٩].

يقول عز من قائل:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء: ٦٥].

ولقد أجمع الصحابة على وجوب تنصيب الخليفة أو رئيس الدولة الإسلامية، حتى أنهم قدموه على دفن رسول الله.

واعلم أيها الأخ الحبيب:

أنه لا بد للناس من حاكم يحفظ الثغور، وينفذ الحدود، ويرتب السرايا والجنود، ويقسم المغانم والفيء، ويحفظ أموال الناس ودماءهم وأعراضهم، حسب الشريعة الإسلامية، وإقامة العدل، لأن إنزال الكتب وإرسال الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، ما كانا إلا لإقامة القِسْط.

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقِسْط﴾ (الحديد: ٢٥].

بل ما خُلقت السموات والأرض إلا بالحق ولإقامة الحق، ولقد قال شيخ الإسلام: «إن دولة الكفر العادلة تعمّر وتبقى أكثر من الدولة الإسلامية الظالمة».

ولقد حذّر الله ـ عز وجل ـ من البغي والظلم. وإن انفراد أي قائد بمحاولة إقامة دولة إسلامية، فإنه ولو فرض جدلاً أنه نجح في إقامتها، فإن هذا افتراء على الآخرين وتعدٍّ عليهم.

فهنالك قادة كثيرون بذلوا الغالي والرخيص والنفس والنفيس من أجل حماية المستضعفين في الأرض في أفغانستان.

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾ [النساء: ٧٥].

وكذلك هنالك العلماء وأبناء الحركة الإسلامية الذين صبوا جهودهم ودفعوا كل ما يملكون من أجل رؤية دين الله منتصراً في أفغانستان.

واعلم أيها الأخ الحبيب:

أن أقصر الطرق للوصول إلى إقامة دين الله في الأرض، هو التنسيق بين الإخوة المجاهدين لدخول كابول وتأمين أعراض الناس وأموالهم ودمائهم وعدم ترويعهم.

فحاول ما استطعت، وابذل غاية جهدك في الوصول إلى حل مشترك بين القادة الذين يؤمّل فيهم الخير، ويملكون من وسائل القوة ما يستطيعون أن يسهموا به في إسقاط الحكم الكافر الشيوعي، وإقامة الشرع الإسلامي مكانه.

ونحن ننصح أخانا الحبيب أحمد شاه بأن يطيع أمير الدولة لو التقى أهل الحل والعقد على رجل منهم ونصّبوه رئيساً للدولة الإسلامية. ونحن نحب لكم أن تضربوا المثال الرائع الحي في تجسيد أخلاق المجاهد الحق الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا. والذي لا يقدم أهواءه على الشرع الحنيف. وضَعْ نصب عينيك تلك الكلمة الخالدة التي سطرت على جبين الزمن والتي أطلقها سيف الله المسلول خالد: (أنا لا أقاتل من أجل عمر). وإذا فشل العلماء والعقلاء والمجاهدون في أن يصلوا إلى اختيار ثقة من بينهم ليكون أميراً للمؤمنين وحارساً أميناً للشرع الحكيم، فعندها يأتي دور القادة أمثالك في أن يتعاونوا وينسقوا من أجل الإطاحة بنظام كابول، ثم إقامة شرع الله في أفغانستان.

وإذا بذل القادة المخلصون جهودهم للتعاون والتنسيق في ما بينهم، ثم فشلوا بعد ذلك، وفشل القادة بعدها في إسقاط الحكم الشيوعي، فهنا لا بد من الانتظار فترة معقولة، ثم استفتاء العلماء في أمر الإقدام على إسقاط الحكم الشيوعي وإقامة دين الله في الأرض، الذي ترنو إليه عيون المسلمين في المعمورة، وتهفو إليه قلوبهم، وتتطلع إليه نفوسهم.

أيها الأخ الحبيب:

عليك أن تصبر إخوانك المجاهدين من حولك ومن تليق عليهم من مغبة الولوغ في دماء المسلمين وتلويث الذمة بنجيعهم.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي والنسائي: (لَزوالُ الدنيا أهول على الله من قتل رجل مسلم).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: (من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود وابن حبان والحاكم

وصححه ووافقه الذهبي (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً أو قتل مؤمناً متعمداً).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: (لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي: (لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لكبّهم الله ـ عز وجل ـ في النار).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود: (من قتل مؤمناً فاغتبط بقتله لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً).

ومعنى لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً: لا يقبل الله منه فريضة ولا نافلة.

وحذِّرْ إخوانك من الغلول، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: (كان على ثقل رسول الله ﷺ رجل يقال له كركره فمات، فقال ﷺ: هو في النار، فذهبوا ينظرون فوجدوا عباءة قد غلها).

وفي صحيح البخاري: (أن «مداعماً» ـ غلام رسول الله ـ قُتل وكان مع رسول الله، فقال الناس هنيئاً له الجنة، فقال ﷺ وما يدريكم. إن الشملة التي غلها يوم خيبر لتشتعل عليه ناراً).

وأعلِمْهم أن الأكل من طعام الغنيمة ليس غلولاً، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (كنا نصيب في مغازينا العسل والعنب فنأكله ترفعه)(*).

(*) رواه البخاري.

أخي الكريم:

إن قلوب العالم كله متعلقة بكم، وكل عيون المسلمين في الأرض ترنو إليكم، ونفوسهم تهفو إليكم، ولقد أمسك التاريخ قلمه والتقط أنفاسه وينتظر ماذا يسجل بعد هذه المآثر التي أشرقت بها صفحاته، والتضحيات الجليلة التي انبلجت وتابعت تليده (قديمه)، وإن عجلة التاريخ الآن تقف على مفترق طريق تنتظر أين تدفعها أيديكم. لقد كان الجهاد الأفغاني نداء القرن، وصوت الملايين المعبر عن آلامهم والناطق بآهاتهم، والمجسد لآمالهم، والمؤاسي لأحزانهم.

إدفعوا عجلة التاريخ نحو الحق والإسلام، وواصلوا زحف جنود الله لرفع راية الإيمان، ولعل الله يقيم في أفغانستان شريعته ويعلي رايته بعد هذا النصر المبين الذي منّ به رب العالمين عليكم. ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. ونوصيك بمواصلة تربية جندك وتدريبهم ورفع مستواهم الإيماني والعسكري والثقافي، ونستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم عملكم.

أخوكم/ عبد الله عزام

الأربعاء في الثاني عشر من جمادي الآخر سنة ١٤٠٩هـ

الموافق الخامس والعشرون من كانون الثاني سنة ١٩٨٩م.

ملحق رقم ٣
وادي الموت

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد...

فلقد كنت قد سمعت كثيراً عن وادي بنجشير وقرأت واطّلعت على تقارير قدمها الإخوة الذين كُتبت لهم زيارة الوادي، ولكن الصورة الرائعة التي تجسد التضحيات الهائلة التي قدمها أهل هذا الوادي ما كانت لتتضح في ذهني لولا أني وقفت عليها بنفسي ورأيتها بأم عيني.

إن هذا الوادي قد نقل اسمه حيا في العالمين، فمعنى بنجشير (بنج شير: الأُسود الخمسة)، والآن حق لنا أن نطلق عليه وادي الأُسود. عشر سنوات متواصلة من الحياة بين فكي الموت وبين حجري الرحى، وهؤلاء المجاهدون صامدون لم تهن لهم عزيمة، ولم تلن لهم قناة وكأنهم يرددون مع أبي الطيب:

تمرستُ بالآفاتِ حتى تركتها　　　تقول أمات الموتُ أم ذُعر الذعرُ

وقد كان لهم في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والترمذي عن أنس مرفوعاً: (لقد أوذيت في الله وما يُؤذَى أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد. ولقد أتت علي ثلاثون

من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلاّ شيء يواريه إبط بلال).

كنت أرى وأسمع ولا أكاد أصدق ما أرى لأن التضحيات كبيرة لا يطيقها كثير من البشر، وهي أكبر من طاقتنا، ولذا فقد كان يهولنا ما نسمع.

والحق أن الذي يعمل ويصبر فإن الله يبارك في عمله:

﴿إنه من يتقي ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [يوسف: ٩٠].

ولقد قيض الله لهذا الوادي شاباً من أبناء الحركة الإسلامية يجري حب الجهاد في عروقه وأوتي ولعاً شديداً ولهفاً عجيباً بالقتال.

لقد قاد مجموعة من أبناء الحركة أيام داود وتسلل إلى أعماق الوادي، وكان الشاب الوحيد الذي يتقن الرماية على (RPJ) وأحرق دبابة في مركز الوادي في (رخا) واحتل الوادي ليوم واحد.

وعاد إلى بيشاور بعد أن ألقى داود القبض على كثير من أبناء الدعوة، وزجّ بهم في غياهب السجون. ويحدثني عبد الحق عتيد، وكان يسكن معه في غرفة في بيشاور: لقد كان يصعد إلى سطح الغرفة ليلعب الرياضة، وكثيراً ما تراه يطالع في الكتب العسكرية التي كانت له طعامه وشرابه.

وتأتي أيام تراقي ويعود الشعب من جديد ليهب في وجهه وينزل أحمد شاه مسعود مع مجموعة من أبناء الحركة ويجهزهم الشيخ برهان الدين رباني ببندقية شولدز واحدة وبمجموعة من البنادق من صناعة (درا آدم فيل)؛ القرية الباكستانية الشهيرة بصنع السلاح والإتجار به.

وتصل المجموعة إلى بنجشير. يستنفرون أهل الوادي ويقوم الناس

معهم ويقفون في وجه الدولة بالعصي والحجارة ويحررون الوادي بكامله ثم يتخذه أحمد شاه من (شتل) بداية الوادي من جهة بروان مقراً له ويجلس بجانب الهاتف ليتابع أخبار المراكز في بنجشير، فتأتي المكالمات من المركز تلو المركز تنبئ بسقوطها ووصول الدبابات إليها. واستولت الدولة على بنجشير مرة أخرى وأعادت سيطرتها وقبضتها على الوادي.

ويحدث مسعود قائلاً: كان من أصعب المواقف التي واجهتها في حياتي إذ تجهم الناس في وجوهنا وحمّلونا تبعة ما حصل، وعندها تجمعنا وكنا أربعة وعشرين شاباً من أبناء الحركة في دشت ريوات؛ وهي بلدة في الوادي، وتعاهدنا على مواصلة الجهاد حتى الموت، ولكنا أفردنا إفراد البعير المبعد.

ولقد كان إدخال تنين في بيت من البيوت أحب إلى صاحبه من إدخال أحدنا فيه، وتقدم رجل شهم من هذه البلدة واسمه (عبد المتين) وفتح لنا بيته وقال: ليس عندي سوى سير (سبعة كيلوغرامات) من الطحين فهي لكم حتى يرزقنا الله غيرها. وكان ابنه محمد ابراهيم من خيرة القادة الذين فقدهم الجهاد. وقد رأيت هذا الرجل فسألته عن عمره فقال: سبعون عاماً. وقد كان عبد الله أنس يحدث عنه معجباً به، ويقول: هذا هو الأسد السادس في بنجشير (لأن بنجشير: خمسة أسود وهذا سادس الليوث) وهو رجل لا زالت الفتوة بادية على محياه بالإضافة إلى هيبة تضفي عليه الوقار وتلقي الرهبة في قلب الناظر إليه، عدا عن نور يشع من جبينه يعطيه رونقاً وبهاءً.

هو واد واحد يمتد من باريان/بدخشان إلى شتل في بروان على طول مئة كيلومتر. يرافقك في أثناء مسيرتك نهر كأنه اللجين (الفضة) لا يجعلك تمل من رحلتك ولا تسأم من مشيتك، ويغيب التعب وتنسى الضناء والعناء في هذه الرحلة، وأنت تستمتع بخرير الماء وخضرة الشجر وألوان الثمر، وإن كانت الطريق في بعض منعطفاتها تلقي في نفسك ظلالاً من

الخوف والرهبة وأنت ترى نفسك فوق مرتفع يطل على النهر ولم تُبق الانهيارات الجبلية تحت قوائم حصانك إلاَّ مسرباً ضيقاً لا يزيد عن عرض الحصان، وتنظر تحتك لترى الهوة السحيقة التي ستتردى فيها في ما لو زلق الحصان أو أدركه في هذا المأزق الحران (رفض الدابة الطاعة).

وأما الآن فقد جاء عامل جديد يضفي على منظر الوادي روعة ورونقاً وجمالاً، وهو حطام الدبابات والمدرعات التي تعجز عن عدها، وإن كنت راكباً جوادك الذي يسير على مهل، لأن الكثرة والتناثر يجعلان الإحصاء شاقاً ومجهداً. فهذه دبابة قد أصابتها القذيفة فانقلبت في ماء النهر ولم يبق منها سوى عجلاتها الشاخصة إلى السماء فوق الماء. وتلك مدرعة قد انكفأت على وجهها، وثالثة قد سقط جنبها، ورابعة تحطم زجاجها. وأما القرى على جانبي الوادي فإنها تذكّرني بشعر عمر بن أبي ربيعة:

هيج القلبَ مغان وصير | دارسات قد علاهن الشجر
ورياح الصيف قد أزرت بها | تنسج التُّرب فنوناً والمطر

وعندما كنت أرى القرى المدمرة التي لم يخر سقفها فقط، بل جدرانها تهاوت أيضاً، كانت الصورة التي تشخص في ذهني وتمر في خاطري: صورة القرى الرومانية التي مر عليها في الأردن قرابة ألفي عام، ودوائر الآثار تحافظ على بقايا جدرانها وحجارتها لتكون محطات للسياحة تدرُّ الدخل على البلد من تهافت السائحين لرؤيتها.

وعجبت لهذا التدمير الشامل الذي عم الوادي، ثم سألتهم عن سبب هذا، ولم يكن الجواب سوى: التنظيم الدقيق الذي شاهده أعداء الله في الوادي، والمقاومة العنيفة التي واجهها هذا الدبُّ واللدغات القاتلة التي ذاق وبالها في مسارب هذا الوادي وشعابه، وأنت تعجب ومسعود يصف لك حال القرى قبل الغزو الروسي.

الموكب المهيب

لقد ابتدأت رحلتنا في بنجشير من باريان وقد وصلناها الساعة الثامنة بعد الغروب بساعتين، وكان في انتظارنا قرابة مئتي فارس ومئات من المجاهدين الذين يرتدون بزّاتهم العسكرية، بنسق واحد، يحملون رايات مكتوباً عليها آيات النصر وبعضها عليه عبارات الترحيب. كان موقف يأخذ بمجامع القلوب، ويملك على النفس مشاعرها وأحاسيسها فتهيج الذكريات إلى مواكب العزة التي تحركت في الأرض أول مرة تحمل هذا الدّين لتنقذ به البشرية أيام الصدّيق والفاروق رضي الله عنهما، وقد حيانا (سارنوال محمود) قائد بنجشير التابع لمسعود وعانقنا بحرارة. وقال رباني ينقل إليّ ترجمة كلام محمود: لقد كان في انتظاركم سبعمئة فارس منذ الساعة العاشرة صباحاً، وعندما يئسوا من قدومكم رجع خمسمئة منهم وبقي منهم مئتان.

وفي الصباح تحرك الموكب يتقدمه أحمد شاه مسعود ورباني، وكنت قريباً منهما، ووراءنا الخيول التي تصهل وتضج ويصل عددها إلى قرابة المئتين، وجماهير الناس التي هرعت لترى هذا الموكب. وفي كل مكان تمر فيه تجد صفوف المجاهدين المرتبة المنضبطة تحمل الرايات الخضراء، ثم يتقدم قائد السرية ويحيي التحية العسكرية، والأسلحة مشرعة مرفوعة تحيةً لقائد الجمعية/ الشيخ رباني، ثم يحييها الأستاذ رباني ويطلب منهم إنزال السلاح والراحة.

وأما جماهير الناس فكأنها جرادٌ منتشر زحفت لتحيي الضيوف، وكل واحد يودُّ لو يحظى بمصافحة أو تحية أو ابتسامة.

وأما المجاهدون فكنت أرقب ملياً نوع سلاحهم، فكنت أراها روسية ـ أي غنائم حرب ـ. وما أجمل أن تقول فيهم ما قاله بكر بن النطاح:

ومن يفتقرْ منا يعش بحسامه ومن يفتقرْ من سائر الناس يسفل

وإنا لنلهو بالسيوف كما لهت فتاة بعقد أو سخاب قرنفل

يوم أغر من الزمان محجل

كان من أشد الأيام تأثيراً في أعماق النفس، وقد ترك بصمات جلية على القلب، يوم العاشر من صفر سنة ١٤٠٩هـ الموافق ٢١ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨م.

لقد بدأ الموكب مسيرته من الصباح ابتداءً من خنج (بلد سارنوال محمود)، تتقدمنا دبابة فيها المجاهدون ثم ناقلات الجنود التي غنموها، وهي تطفح بالمجاهدين الذين تعلقوا بها من كل جانب، وهتافهم تدوي أصداؤه في جنبات الوادي بين تكبير ونشيد، ووراءنا سيارات الجيب. وركبت مع الشيخ رباني ومسعود وآرينبور وعبد الله أنس في سيارة مكشوفة، وسار الموكب يتهادى بين هذه الهتافات والناس على جانبي الطريق كلما وصلنا قرية أو مركزاً، وكتائب المجاهدين تنتظر. وغالباً ما يكون الناس قد نصبوا سرادق ليتوقف الموكب فيستمع القوم إلى كلمة أو توجيه، ويقدمون الهدايا من الفواكه البنشيرية التي سَلِمت أشجارها من التدمير والإبادة. ويلفت نظرك التفاحُ البنشيري الذي خلّفت الشمس على وجناته المشرقة حمرة أخاذة.

وصلنا إلى بشغور واستقبلنا قائدها طارق. وبشغور؛ هذا المركز العظيم الذي يذكرك بفتح رمضان الكبير سنة ١٤٠٦هـ، حيث تقدم ثلاثة وخمسون مجاهداً كفرقة هجومية ويسندهم حوالى مئة آخرون وقد أسروا حوالى أربعمئة من الكفار من بينهم ٨٧ ضابطاً، ضمنهم الجنرال أحمد الدين الذي قتله المجاهدون، ونكست الأعلام عليهم عدة أيام في كابول.

ثم سار الموكب من بشغور إلى آشابة ثم استرحنا قليلاً، وقد ذكّرنا هذا المركز بالأخ نور الدين الذي قضى فيه أياماً عزيزة ولكنها شديدة لأن قائده الآن هو شقيق القائد ميرزا الذي كان يتولى قيادة المنطقة، بين فكي

الموت. ومن آشابة سار الموكب إلى ثلاثة مراكز متقاربة (كرامان وعبد الله خيل ودره هزارة)، وفيها صلينا الظهر واسترحنا قليلاً ليلقي الغلمان أناشيدهم التي كانت لازمةً من برامج الاحتفال ومراسم الاستقبال في كل محطة نقف فيها، ودعك من المجاهدين الذين برزوا بلباسهم العسكري وأسلحتهم التي تلمع مع إشراقة الشمس.

وبعدها سرنا إلى منطقة أستانة التي تضم أربع قرى (بهارك، أورو، سنكنا، أستانة).

قال مسعود ونحن في السيارة: الحمد لله لقد بدأنا ببندقية شولدز، وها نحن الآن نملك الأسلحة بأنواعها حتى الدبابات. وعندما كنا نمر بين أعطاف قرية (سنكنا) قال مسعود: تُعتبر هذه القرية من أشهر القرى بإنتاج العنب. فنظرت نحوها ملياً، وإذا بها ركام من التراب لم تعد تُرى فيها شجرة يانعة.

ألا ابك لإحراق وهدم منازل	وقتل وإنهاب النهى والذخائر
وإبراز ربات الخدور حواسراً	خرجن بلا خمر ولا بمآزر
كأن لم تكن بنشير أحسن منظراً	وملهى رأته عين لاه وناظر

محرقة الآليات

ثم سارت بنا السيارة إلى منطقة بارانده، وفيها ست قرى صغيرة متجاورة (مالاصبا، نواليخ وجنكلك وبازاراك ورحمن خيل وملا خيل). وكان بين مالاصبا وجنكلك أكوام الدبابات المدمرة والسيارات المحطمة بما لا يقل عن ثلاثمئة آلية تحيط بالطريق من الجانبين، فسألت مسعود عن تاريخ تدميرها فأجاب: لقد دُمِّرت في سنتي ١٩٨٦، ١٩٨٧. حينها قلت له: وكيف تركتها الدولة بهذا الحال؟ فقال: برغم المحاولات المستميتة، فإن الدولة فشلت في أن تقيم مركزاً في هذه المنطقة. ولذا لم تستطع أن تسحب هذه الآليات التي شهدت النهاية المؤسفة الحزينة لراكبيها الذين

تطايرت لحومهم مع قطع الحديد المنصهرة تحت ضربات صواريخ RPJ التي أذاقتهم من شظياتها لهيباً نزع أرواح هؤلاء قبل أن يروا لهيب جهنم.

رخا (حدائق الموت)

وفي يوم الجمعة ١٢ صفر ١٤٠٩هـ الموافق ٢٣ أيلول/سبتمبر، وصلنا إلى رخا (مركز المديرية). ورخا تذكّرنا بحديقة الموت في اليمامة التي استعصم بها مسيلمة الكذاب واستحر القتل فيها بأصحاب رسول الله. وتذكّرنا بطولةُ أحمد بانا وجادا ببطولات الصحابة، رضوان الله عليهم، خاصة البراء بن مالك الذي تعلّق بالكلاليب المحمّاة التي سلخت لحمه.

سنة ١٩٨٢ يحتمل الروس أعنابة ورخا ويلقون بثقلهم فيهما ويزرعون خمسة آلاف جندي روسي في رخا ومثلهم في أعنابة.

ووزع الروس مراكزهم على قمم الجبال الشامخة حول رخا وعلى قمم التلال الصغيرة المحيطة بها كذلك.

وذات ليلة جاء المجاهدون وخاضوا في الثلوج التي تصل إلى صدورهم، وتسلقوا الجبال المتوسطة الارتفاع (القمم الشاهقة والتلال الصغيرة) ونصبوا أسلحتهم الثقيلة (الدوشكا والهاون)، فكان الروس في السهل على حافة النهر ثم على رؤوس التلال الصغيرة، وبعدهم المجاهدون على جبال متوسطة الارتفاع وفوقهم الروس مرة ثالثة فوق الذرى الشاهقة.

وعدا الروس خلف ظهرك روس فعلى أي جانبيك تميل

كان مسعود يشير إلى مراكز المجاهدين. ولا أكاد أصدق ما أسمع، وكأنه يحدثني عن قصص ألف ليلة وليلة ـ كما عبر ذات مرة ـ. عيناي تنظران وعقلي يتملى الحديث، لعله يستسيغ ما يسمع، إنه عمل بشري شخوصه من لحم ودم، ولكن الطاقات القاصرة والهمم الهابطة لا تكاد تصدق هذه الوقائع التي جعلت روسيا تخرّ صاغرة عند أقدام المجاهدين، تطلب الصلح وتلتمس الهدنة:

وإني لمن قـوم كـأن نـفـوسـهـم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

لقد حاول الروس محاولات يائسة أن يُنزلوا هذه الصقور التي حطت في ظلال الليل بين الثلوج، وجربوا المدفعية والصواريخ والطائرات، ولكن المجاهدين أصبحوا رواسي ثابتات كهذه التي تقلهم.

ولكن أنّى لهم طعام يأكلونه أو خبز يقتاتون به؟ وكيف الوصول إليهم من بين جموع الروس ونيرانهم؟ لقد كان طعامهم لعشرة أيام التوت الجاف لا غير، ثم صاروا يوزعون البطاطا بالحبة كوجبة لكل مجاهد، وبقي طعامهم البطاطا فحسب. وحتى هذه البطاطا كانت أثمانها قرضاً من أيدي التجار.

قال مسعود: كنا كلما رأينا حصاناً قادماً نحو قواعد المجاهدين نحسبه تاجراً جاء يقتضي دينه. كانت المعارك مستمرة من طلوع الشمس إلى غروبها، ولا يستطيع الروس أن يتحركوا بين مراكزهم إلا ركضاً. وكلما تحرك متحرك أثناء النهار فاجأته رصاصة الدوشكا أو قذيفة الهاون فتعيد إليه صوابه ليأخذ على نفسه عهداً ألاّ يتحرك إلا تحت جنح الظلام الدامس.

لقد استطاع هؤلاء الشبان الذين يعيشون بين جبال الجليد والثلوج هذه، أن يعلّموا الروس درساً قاسياً، وأن يقيدوا حركة خمسة آلاف جندي منهم.

أُسد فرائسها الأُسود يقودها أَسد تصير له الأُسود ثعالبَ

وكما قال ابن القيم (إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة وأردفه قمر العزيمة أشرقت أرض القلب بنور ربها).

أهـل رخـا

وفي هذه الفترة، ما كان أهل رخا يسكنونها إلا ليلاً، فترى الأطفال

من قبل طلوع الشمس يهرولون قبل آبائهم فراراً إلى الكهوف في الجبال، ويقضون سحابة يومهم في المغاور، حتى إذا غربت الشمس وانتشر الظلام عادوا إلى بيوتهم فراراً من البرد القارس، وذلك بسبب المعارك التي تستمر أحياناً من الصباح إلى المساء.

الهجوم

يقول مسعود: قرّرنا اقتحام مركز الفرقة والدخول على الروس في خيامهم، وكان قراراً يحتاج إلى نفوس باعت أرواحها لله. طلبتُ ثلاثين مجاهداً لتنفيذ العملية، فإذا بمئة من المجاهدين حولي، وكانت مجازفة رهيبة ومغامرة خطيرة إذ إن النهر يعترض طريق المجاهدين عدا الثلوج التي تكسو الجبال، ولكن:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً   فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وكنا نعاني معاناة شديدة من عوز بالأحذية، فكان الشبان الذين ننتدبهم لإيصال المواد الغذائية لإخوانهم في الجبال، يلبسون الأحذية، ويبقى الآخرون حفاة. ولقد كانت الهمة عالية والعزيمة شديدة:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ   كأنهم من طول ما التثموا مرد

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا   كثير إذا شدّوا قليل إذا عدّوا

وانطلق المجاهدون بعد وهن من الليل واخترقوا النهر، ومروا على خيمة الجنرال، وهم لا يعرفونه، وفتحوا أبواب الخيام، وقتلوا من قتلوا، وتركوا البعض يتلوى بجراحه. ثم نزل الخبر نزول الصاعقة على أفئدة الروس، وظنوا أنهم جاءهم الموج من كل مكان، ولم يفقد المجاهدون شهيداً واحداً. وارتفعت معنويات جند الله وقرروا أن يقتحموا أعنابة (مركز الفرقة الثانية).

ملحق رقم ٤
الترتيب الزمني لأحداث أفغانستان(*)

هذا ترتيب زمني لأهم الأحداث التي مرّت على أفغانستان، بداية من سقوط الملك ظاهر شاه وصولاً إلى إعدام نجيب الله على يد حركة طالبان عندما سيطرت على كابول.

العام ١٩٧٣

١٧ تموز/ يوليو

السردار محمد داود خان رئيس وزراء أفغانستان السابق، بمساعدة ضباط وجنود في الجيش الأفغاني، يقوم بعمل مسلح ينهي به النظام الملكي، ويعلن عن تأسيس النظام الجمهوري.

١٤ آب/ أغسطس

الملك ظاهر شاه يعلن استقالته رسمياً.

العام ١٩٧٤

٣ شباط/ فبراير

وزيرا الخارجية والدفاع الباكستانيان يزوران كابول ويقدمان دعوة لرئيس جمهورية أفغانستان داود خان لحضور مؤتمر الدول الإسلامية المنعقد في لاهور.

(*) إعداد: حامد علمي، نشر: سفارة أفغانستان، ترجمة: عبد الله أنس.

٤ أيار/مايو

قوات الأمن تعتقل زعيم الحركة الإسلامية الأستاذ غلام محمد نيازي مع مجموعة من أنصاره.

٩ أيار/مايو

محمد داود خان، رئيس جمهورية أفغانستان، يرفع علم أفغانستان الجديد على قصر الجمهورية.

٤ حزيران/يونيو

محمد داود خان يزور الاتحاد السوفياتي لأول مرة بعد تأسيس النظام الجمهوري.

٧ أيلول/سبتمبر

محمد داود خان، رئيس جمهورية أفغانستان، يتقدم بشكوى للأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم، ينتقد فيها السياسة التي تنتهجها باكستان في حق البلوش.

العام ١٩٧٥

٢١ تموز/يوليو

أعضاء من الحركة الإسلامية يقومون بهجوم مسلَّح على مديرية سرخرود بولاية جلال آباد، ثم يتركونها بعد تبادل لإطلاق النار.

٢٣ تموز/يوليو

مجموعة من أبناء الحركة الإسلامية بقيادة أحمد شاه مسعود تقوم بهجوم مسلح على الدوائر الحكومية، وتستولي عليها.

٩ أيلول/سبتمبر

رئيس الاتحاد السوفياتي پودغورني، يقوم بزيارة لأفغانستان، ويلتقي خلالها بنظيره الأفغاني محمد داود.

٤ آذار/ مارس **العام ١٩٧٦**

محمد داود خان، رئيس جمهورية أفغانستان، يزور الهند، ويلتقي برئيس وزرائها موراجي دي ساي.

٨ نيسان/ أبريل

رئيس الوزراء الباكستاني ذو الفقار علي بوتو، يعلن في خطاب تضامنه مع ضحايا السيول المدمرة التي اجتاحت أفغانستان، ويعلن عن تقديم كل المساعدات للمنكوبين.

٧ أيار/ مايو

وزارة الخارجية الأفغانية، في خطوة غير مرتقبة، تعلن تقديرها لخطاب ذو الفقار والمساعدات التي قدمتها باكستان، وتتمنى أن تتطور هذه المبادرة إلى تحسين العلاقات بين البلدين.

٧ حزيران/ يونيو

ذو الفقار علي بوتو يقوم بزيارة إلى كابول ويلتقي برئيسها.

١١ تموز/ يوليو

تم افتتاح المستشفى العسكري، الذي يتسع لـ ٤٠٠ سرير، بمساعدة من الاتحاد السوفياتي.

١٥ آب/ أغسطس

الرئيس الأفغاني محمد داود خان يشترك في مؤتمر دول عدم الانحياز الذي انعقد في كولمبو عاصمة سريلانكا.

٢٠ آب/ أغسطس

محمد داود خان يتوقف في باكستان في طريق عودته من كولمبو، ويلتقي ببوتو.

٢٨ أيلول/ سبتمبر

محمد داود خان يُصدر مرسوماً يطلب فيه من الشعب الأفغاني أن يختار مندوبيه قصد الاشتراك في مجلس «الويجركه»

العام ١٩٧٧

٢٦ كانون الثاني/ يناير

الصحف الأفغانية تنشر نص الدستور الأفغاني.

١٤ شباط/ فبراير

مجلس «الويجركه» يصادق على دستور أفغانستان المكوّن من ١٣ فصلاً و١٣٦ مادة.

٣٠ آذار/ مارس

وضْعُ الحجر الأساس لراديو أفغانستان وتلفزيونها، في كابول.

١٢ نيسان/ أبريل

محمد داود خان، رئيس جمهورية أفغانستان، يقوم بزيارة للاتحاد السوفياتي يلتقي خلالها بالقيادة السوفياتية.

٢٥ نيسان/ أبريل

محمد داود خان، رئيس جمهورية أفغانستان، قام بزيارة إلى إيران، والتقى برضا شاه. ووعدت إيران برصد مبلغ قدره مليارا دولار من أجل تنفيذ مشروع خط السكة الحديدي، ومشاريع أخرى في أفغانستان.

١١ تشرين الأول/ أكتوبر

الجنرال محمد ضياء الحق، رئيس حكومة باكستان العسكرية، يقوم بزيارة إلى أفغانستان قصد إجراء محادثات مع رئيس جمهوريتها، محمد داود خان.

٢١ شباط/ فبراير **العام ١٩٧٨**

محمد داود خان، رئيس جمهورية أفغانستان، قام بزيارة إلى الماريشال تيتو بناء على دعوة من الأخير، وبعدها زار الجماهيرية الليبية والتقى خلالها بالقائد معمر القذافي.

٥ آذار/ مارس

محمد داود خان، رئيس جمهورية أفغانستان، قام بزيارة إلى باكستان بناءً على دعوة من الجنرال محمد ضياء الحق.

٢ نيسان/ أبريل

محمد داود خان، رئيس جمهورية أفغانستان، يقوم بزيارة إلى المملكة العربية السعودية ومصر ويلتقي بقيادتيهما.

٢٦ نيسان/ أبريل

أعلن راديو كابول أنه أُلقي القبض على بعض القيادات السياسية بتهمة التآمر على الحكومة الأفغانية، وكان من بينهم نور محمد تركي وببرك كارمل زعيما حزب خلق الشيوعي.

٢٧ نيسان/ أبريل

مجموعة من الضباط والجنود المناضلين في حزب خلق تُقْدِم على انقلاب عسكري.

٢٨ نيسان/ أبريل

قُتل محمد داود خان مع عائلته وأخيه محمد نعيم في قصر الجمهورية على يد المجموعة الانقلابية.

أول أيار/ مايو

حزب خلق يعلن عن الحكومة الجديدة بقيادة نور محمد تركي وإعلانه رئيساً لأفغانستان.

٢ حزيران/ يونيو

أُعلن عن تعيين مجموعة من زعماء حزب برشم الشيوعي سفراءَ في دول مختلفة، من بينهم ببرك كارمل.

٢٣ آب/ أغسطس

قامت حكومة تركي باعتقالات في صفوف حزب برشم بتهمة العمل على قلب نظام الحكم.

٩ أيلول/ سبتمبر

قام الجنرال ضياء الحق بزيارة لأفغانستان، التقى خلالها بالرئيس نور محمد تركي.

١٩ تشرين الأول/ أكتوبر

محمد تركي يرفع العلم الأفغاني الجديد فوق القصر الجمهوري.

٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر

أعلن راديو كابول عن إقالة ستة من زعماء حزب برشم من مناصبهم كسفراء، وكان من بينهم ببرك كارمل بتهمة العمل على تشويه صورة الحكومة في الخارج.

٥ كانون الأول/ ديسمبر

قامت هيئة عليا بقيادة الرئيس محمد تركي، بزيارة للاتحاد السوفياتي، تم التوقيع خلالها على معاهدة التعاون الشامل بين البلدين.

العام ١٩٧٩

١٥ شباط/ فبراير

قُتل أدلف دابنز سفير الولايات المتحدة الأميركية في كابول.

٢٧ آذار/ مارس

تم الإعلان عن حفيظ الله أمين رئيساً للحكومة.

٢١ نيسان/ أبريل

مجموعة من الضباط تعلن التمرُّدَ على نظام كابول في قاعدة ننجرهار العسكرية.

٩ أيار/ مايو

سكان مجموعة من محافظات ولاية لوغر يعلنون العصيان المدني ضد حكومة كابول، والمئات من المواطنين يلقون حتفهم في مشادّات عنيفة بينهم وبين القوات الحكومية.

١٥ آب/ أغسطس

أهالي العاصمة كابول يخرجون إلى الشوارع، معلنين سخطهم على النظام الحاكم، مما أدى إلى مقتل واعتقال أكثر من عشرة آلاف مواطن.

٢٢ آب/ أغسطس

انضمت أقوى فرقة عسكرية في الجيش الأفغاني (تمس كوه اسمار) إلى الشعب المنتفض.

أول أيلول/ سبتمبر

نور محمد تركي يتوجه إلى العاصمة الكوبية هافانا، من أجل الاشتراك في مؤتمر دول عدم الانحياز.

٩ أيلول/ سبتمبر

محمد تركي يقوم بزيارة للاتحاد السوفياتي في طريق عودته من هافانا إلى كابول، ويلتقي بالقادة السوفيات.

١٤ أيلول/ سبتمبر

نشبت معركة داخل القصر الجمهوري بين أنصار محمد تركي وأنصار حفيظ الله أمين.

١٦ أيلول/ سبتمبر

أقيل الرئيس محمد تركي من منصبه وأُعلن عن حفيظ الله أمين رئيساً للجمهورية خلفاً له.

٩ تشرين الأول/ أكتوبر

أعلن راديو كابول أن نور محمد تركي قد توفي إثر مرض كان يعاني منه.

٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر

قطع عسكرية تابعة للاتحاد السوفياتي تتمركز في بغرام؛ القاعدة الجوية العسكرية.

٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر

أعلنت حكومة كابول عن أسماء اثني عشر ألفاً تم إعدامهم في سجن بول تشرخي، وعُلِّقت أسماؤهم على جدران وزارة الداخلية.

٢٧ كانون الأول/ ديسمبر

قوات الاتحاد السوفياتي تحتل بكشافة راديو كابول وكل الدوائر الحكومية، وتتولى إسقاط حكومة حفيظ الله أمين ليتولى ببرك كارمل الحكم في البلاد.

٣٠ كانون الأول/ ديسمبر

ببرك كارمل يعقد أول مؤتمر صحافي بعد توليه السلطة.

٣٠ كانون الأول/ديسمبر

أعلن راديو كابول إعدام حفيظ الله أمين بعد محاكمته.

العام ١٩٨٠

٧ كانون الثاني/يناير

اجتمع مجلس الأمن لبحث غزو أفغانستان، وطالب الاتحاد السوفياتي بالخروج الفوري من أفغانستان بأغلبية ١٥ عضواً مقابل عضوين.

١٤ كانون الثاني/يناير

الأمم المتحدة تجتمع في جلسة طارئة لبحث التطورات الحاصلة في أفغانستان، وتُصدر بياناً تطالبُ فيه الاتحاد السوفياتي بالخروج من أفغانستان على الفور بأغلبية ١٠٤ أصوات مقابل ١٨ صوتاً، إلا أن الاتحاد السوفياتي يرفض القرار.

٢٠ كانون الثاني/يناير

أعلن الرئيس الأميركي جيمي كارتر أن بلاده سوف لن تشارك في الألعاب الأولمبية المقامة في موسكو إذا لم يسحب الاتحاد السوفياتي قواته من أفغانستان قبل ٢٠ شباط/فبراير.

٩ أيار/مايو

ثلاث منظمات جهادية تتحد وتنتخب البروفيسور صبغة الله مجددي رئيساً لها، وأُطلق على التنظيم اسم الثلاثي.

١٦ تشرين الأول/أكتوبر

ببرك كارمل قام بزيارة إلى موسكو التقى خلالها بالرئيس بريجنيف الذي أعلن دعمه الكامل لأفغانستان «الثورية»، على حد تعبيره.

العام ١٩٨١

٢١ كانون الثاني/يناير

منظمة المؤتمر الإسلامي تعقد جلسة في الطائف في المملكة العربية

السعودية، وتعلن إدانتها للاجتياح السوفياتي لأفغانستان.

٢ آذار/مارس

قامت مجموعة ادّعت أنها تابعة لذو الفقار علي بوتو، باختطاف طائرة من مطار كراتشي وأجبرتها على الهبوط في مطار كابول الدولي.

١٦ أيلول/سبتمبر

سبع منظمات جهادية تُدْمَج وتعلن عن الاتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان، وتم تعيين البروفيسور عبد الرب الرسول سياف رئيساً له.

١٨ تشرين الثاني/نوفمبر

منظمة الأمم المتحدة تعين كرد فينر مبعوثاً خاصاً، وتطالبه ببذل مساعيه من أجل إحلال السلام في أفغانستان.

١٧ كانون الأول/ديسمبر

ببرك كارمل يقلّد الرئيس السوفياتي بريجنيف وسام الحرية في موسكو، وهو أعلى وسام في أفغانستان.

٢٧ كانون الأول/ديسمبر

الرئيس الأميركي رونالد ريغان يقترح تاريخ ٢١ آذار/مارس يوم تضامن مع الشعب الأفغاني.

العام ١٩٨٢

٣١ أيار/مايو

أعلن راديو كابول عن نجاح الحملة التي يقوم بها الاتحاد السوفياتي على وادي بنجشير، منذ أسبوع.

٢٤ حزيران/يونيو

انتهت محادثات غير مباشرة بين مندوبين عن حكومتي كابول وإسلام آباد في جنيف.

٢١ تشرين الأول/ أكتوبر

أحمد شاه مسعود قائد المجاهدين، أصدر نداءً يحذّر فيه الأمم المتحدة من مجاعة قد يتعرض لها أهالي وادي بنجشير نتيجة الحملات العسكرية المتلاحقة التي يقوم بها الجيش السوفياتي على الوادي.

العام ١٩٨٣

٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر

الجمعية العامة للأمم المتحدة تجتمع للمرة الخامسة، وتطالب قوات الاتحاد السوفياتي بالخروج من أفغانستان بأغلبية ١١٦ موافقاً مقابل ٢٠ معارضاً و١٧ ممتنعاً عن التصويت.

العام ١٩٨٤

٢٤ نيسان/ أبريل

أعلن راديو كابول أنه يهنئ الشعب الأفغاني بانتصار القوات السوفياتية على المجاهدين في وادي بنجشير، وتقهقر مجاهديها خارج الوادي.

العام ١٩٨٥

٢٥ شباط/ فبراير

الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف يفتتح المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي، ويعلن أن الحرب في أفغانستان موجعة للاتحاد السوفياتي.

١٧ أيار/ مايو

سبع منظمات جهادية مقيمة في بيشاور، أعلنت عن تشكيل ائتلاف جديد، وأُعلن عن المهندس قلب الدين حكمتيار ناطقاً رسمياً باسمه.

تشرين الثاني/ نوفمبر

قامت هيئة من المجاهدين برئاسة المهندس قلب الدين حكمتيار، وطلبت في نيويورك اللقاء بالرئيس الأميركي رونالد ريغان، الذي رفض اللقاء بها.

١٦ حزيران/ يونيو **العام ١٩٨٦**

الأستاذ برهان الدين رباني الناطق الرسمي باسم ائتلاف المجاهدين الأفغان، يزور أميركا ويلتقي بالرئيس الأميركي رونالد ريغان.

١٨ ـ ٢١ تموز/ يوليو

محكمة كابول أصدرت حكم الإعدام غيابياً على مجموعة من القادة الميدانيين، وهم أحمد شاه مسعود، بناه خان، إسماعيل خان، علاء الدين من ولاية هرات، مولوي جلال الدين حقاني من ولاية بكتيا، سيد منصور حسين بار قائد ولاية بغلان.

٢٥ أيلول/ سبتمبر

أول مرة يتم فيها إطلاق صاروخ استنغر على مشارف مطار جلال آباد.

تشرين الثاني/ نوفمبر ـ كانون الأول/ ديسمبر

قوات عظمى من الجيش السوفياتي والجيش الأفغاني تتمكن من إيصال المدد إلى مدينة خوست المحاصَرة بعد شهر من المعارك الضارية بينها وبين المجاهدين في منطقة جدران في ولاية بكتيا.

١٢ كانون الأول/ ديسمبر

قام الدكتور نجيب الله بزيارة إلى الاتحاد السوفياتي، وأجرى محادثات مع الرئيس غورباتشوف.

أول كانون الثاني/ يناير **العام ١٩٨٧**

أُعلن في كابول عن وقف إطلاق النار من طرف واحد بين حكومة كابول والمجاهدين، يبدأ سريانه بتاريخ ١٥ كانون الثاني/ يناير.

١٧ كانون الثاني/ يناير

أعلن زعماء الجهاد في تجمع غفير للمهاجرين في مدينة بيشاور الباكستانية، رفضهم وقف إطلاق النار الذي أعلنته حكومة نجيب الله.

٢٠ تموز/ يوليو

نجيب الله، رئيس جمهورية أفغانستان، قام بزيارة لموسكو التقى خلالها بالرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف.

١٨ تشرين الأول/ أكتوبر

أعلن عن مولوي يونس خالص ناطقاً رسمياً باسم ائتلاف المجاهدين.

٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر

الجمعية العامة للأمم المتحدة تطالب الاتحاد السوفياتي بالخروج من أفغانستان بغالبية ١٣٣ صوتاً.

العام ١٩٨٩

٢٣ كانون الثاني/ يناير

معظم السفارات الغربية واليابان أغلقت أبوابها في كابول.

١٤ شباط/ فبراير

آخر كتيبة تابعة للجيش السوفياتي تغادر أفغانستان.

٢١ شباط/ فبراير

حكومة كابول أعلنت حالة الطوارئ.

٢٣ شباط/ فبراير

اجتمع مندوبون من مختلف التنظيمات الجهادية الأفغانية في مدينة روالبندي الباكستانية من أجل تعيين قيادة وتشكيل حكومة جديدة مؤقتة.

٢٦ شباط/ فبراير

أُعلن عن الأستاذ صبغة الله مجددي رئيساً مؤقتاً لحكومة المجاهدين.

١٠ آذار/ مارس

المملكة العربية السعودية تعترف بحكومة المجاهدين المؤقتة.

١٧ نيسان/ أبريل

الولايات المتحدة الأميركية تعين بينتر تامسن سفيراً لها لدى حكومة المجاهدين المؤقتة.

٩ تموز/ يوليو

اثنان وثلاثون من قادة المجاهدين الميدانيين التابعين للجمعية الإسلامية الأفغانية يلقون حتفهم في فارخار في ولاية تاخار على يد «سيد جمال»؛ أحد قادة الحزب الإسلامي الأفغاني.

١٨ تموز/ يوليو

الأستاذ برهان الدين رباني يعلن في حفل تأبيني في بيشاور إثر تلقيه نبأ قتل قادته الميدانيين في ولاية تاخار، تعليق عضوية حكمتيار من حكومة المجاهدين المؤقتة.

٥ آب/ أغسطس

المهندس قلب الدين حكمتيار يعلن في مؤتمر صحافي استقالته من الحكومة المؤقتة بصفته وزير خارجيتها، ويعلن عن حلها.

٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر

تعرض الشيخ عبد الله عزام، أمير العرب، لحادث انفجار أودى بحياته وولديه محمد وإبراهيم.

٢٤ كانون الأول/ديسمبر

عُلِّق كل من «سيد جمال» وشقيقه وأحد مقاتليه على حبل المشنقة بجرم قتل قادة الجمعية في ولاية تاخار.

العام ١٩٩٠

٦ آذار/مارس

الجنرال شهنواز تني وزير الدفاع في حكومة كابول يقدم على محاولة انقلاب عسكرية ضد نجيب الله.

٦ آذار/مارس

المهندس قلب الدين حكمتيار أمير الحزب الإسلامي الأفغاني أعلن في مؤتمر صحافي في إسلام آباد أنه يدعم ويتبنى انقلاب شهنواز تني.

٦ آذار/مارس

الجنرال شهنواز تني يفر من أفغانستان مع معاونيه الانقلابيين بعد فشل المحاولة الانقلابية بواسطة طيارة أنزلتهم على الحدود الباكستانية الأفغانية.

العام ١٩٩١

٩ شباط/فبراير

حكومة المجاهدين المؤقتة تقوم بإرسال ٣٠٠ مجاهد إلى المملكة العربية السعودية ضمن قوات التحالف الدولي في حرب الخليج.

١٥ أيار/مايو

في سلسلة الحملات التي تقوم بها جبهات المجاهدين في الشمال، قام أحمد شاه مسعود بفتح قاعدة خواجه غار المركزية على الحدود الطاجيكية.

١٧ أيار/مايو

نشبت معارك عنيفة بين فصائل المجاهدين في ولاية كنز.

٢٢ أيار/ مايو

حكومة كابول تقصف أحمد شاه مسعود في عمليات خواجه غار بصواريخ سكود تتسبب في قتل وجرح أكثر من خمسين شخصاً.

٢٨ أيلول/ سبتمبر

هيئة من زعماء الجهاد تتجه إلى نيويورك قصد الاشتراك في الجمعية العمومية للأمم المتحدة.

العام ١٩٩٢

١٥ كانون الثاني/ يناير

القطع العسكرية التابعة للجيش الأفغاني بقيادة الجنرال «عبد المؤمن»، تعلن انشقاقها عن حكومة كابول.

١٥ آذار/ مارس

ولاية سمنغان تسقط في أيدي المجاهدين.

١٨ آذار/ مارس

مجاهدو مزار الشريف يحتلون المدينة بالتعاون مع القوات الحكومية داخل المدينة.

١١ نيسان/ أبريل

القوات الحكومية المكلفة بتأمين خط الإمداد في ممر سالانج، تستسلم لأحمد شاه مسعود.

١٤ نيسان/ أبريل

أحمد شاه مسعود يدخل قاعدة بغرام الجوية.

١٦ نيسان/ أبريل

عبد الوكيل وزير خارجية الدكتور نجيب الله، يذهب إلى ملاقاة أحمد

شاه مسعود في مدينة تشاريكار، ويتحدث معه حول تسليم السلطة إلى المجاهدين.

١٦ نيسان/ أبريل

الدكتور نجيب الله يلجأ إلى مبنى الأمم المتحدة في كابول.

١٧ نيسان/ أبريل

أعلن عبد الوكيل وزير خارجية الدكتور نجيب الله، عبر شاشة التلفزيون، عن لجوء نجيب الله إلى مبنى الأمم المتحدة، واتهمه بالمسؤولية عن مأساة أفغانستان.

١٨ نيسان/ أبريل

ولاية هرات تسقط بأيدي المجاهدين بقيادة إسماعيل خان.

٢٣ نيسان/ أبريل

المهندس قلب الدين حكمتيار والمهندس أحمد شاه مسعود يتحدثان مفصلاً باللاسلكي عن حقيقة سقوط كابول وتشكيل حكومة مقبلة تشترك فيها جميع الفصائل الجهادية. ودُعي القاضي حسين أحمد أمير الجماعة الإسلامية الباكستانية، كي يكون شاهداً على المكالمة.

٢٧ نيسان/ أبريل

قافلة المجاهدين بزعامة الأستاذ صبغة الله مجددي تنطلق إلى أفغانستان قصد استلام السلطة.

٢٨ نيسان/ أبريل

وزارة الخارجية الأفغانية تقيم الساعة الرابعة عصراً حفلاً رسمياً وتسلم السلطة إلى وفد المجاهدين برئاسة صبغة الله مجددي.

٢ أيار/مايو

أُعلنت حكومة المجاهدين.

٥ أيار/مايو

قادة المجاهدين يتجهون إلى كابول في قافلة مهيبة شملت كلاً من برهان الدين رباني، عبد الرب الرسول سياف، مولوي يونس خالص، مولوي محمد نبي، آيت الله محسني.

٢٢ أيار/مايو

صبغة الله مجددي رئيس الجمهورية المؤقت، يقوم بزيارة إلى ولاية مزار الشريف، ويعلن عن ترقية الجنرال عبد الرشيد دوستم.

٢٦ أيار/مايو

صبغة الله مجددي يقوم بزيارة رسمية إلى حكومة باكستان.

٤ حزيران/يونيو

صبغة الله مجددي أعلن أنه يريد رأي الشعب الأفغاني حتى يسلم السلطة.

٢٨ حزيران/يونيو

صبغة الله مجددي يسلم السلطة في احتفال رسمي في قصر الجمهورية، إلى آيت الله آصف محسني والمجلس الأعلى للدولة ليسلم السلطة بدوره إلى برهان الدين رباني طبقاً للاتفاق.

٣ تموز/يوليو

المجلس القيادي الأعلى يدشن حملة تهدف إلى جمع الأسلحة من أيدي عموم المجاهدين.

٦ تموز/يوليو

عبد الصبور فريد، يدخل نيابةً عن قلب الدين حكمتيار العاصمة كابول في موكب كبير بصفته رئيساً للوزراء.

١٤ تموز/يوليو

معارك عنيفة تنشب بين القوات الحكومية وحزب الوحدة الشيعي في غرب كابول.

أول أيلول/سبتمبر

رئيس دولة أفغانستان الإسلامية برهان الدين رباني يقوم بزيارة إلى العاصمة الأندونسية جاكارتا، بهدف الاشتراك في مؤتمر دول عدم الانحياز.

١٧ أيلول/سبتمبر

الأستاذ برهان الدين رباني والمهندس حكمتيار يوقعان اتفاقاً يقضي بوقف إطلاق النار في منطقة بغمان.

٣١ تشرين الأول/أكتوبر

انتهت فترة رئاسة برهان الدين رباني، إلا أن نقل السلطة تأجّل لحين انعقاد مجلس أهل العقد والحل.

٢١ كانون الأول/ديسمبر

نشبت معارك عنيفة بين قوات الحكومة وقوات الميليشيات بقيادة عبد الرشيد دوستم داخل مدينة كابول.

٣٠ كانون الأول/ديسمبر

الأستاذ برهان الدين رباني يستمر في رئاسة الدولة بعدما مُدّدت مهلته من قبل مجلس أهل العقد والحل.

١٤ أيلول/ سبتمبر

أعلنت حكومة باكستان أنها ستفتتح عما قريب طريق التجارة الرابط بين باكستان وآسيا الوسطى مروراً بأفغانستان.

٢١ أيلول/ سبتمبر

قافلة التجارة الباكستانية إلى آسيا الوسطى تصل أفغانستان.

أوائل تشرين الأول/ أكتوبر

قافلة التجارة الباكستانية تتعرض للتوقيف على أيدي مجاهدي قندهار.

١٠ تشرين الأول/ أكتوبر

برهان الدين رباني رئيس دولة أفغانستان الإسلامية، يقوم بزيارة إلى المملكة العربية السعودية بدعوة من الملك فهد بن عبد العزيز، ويختتم زيارته السعودية، بزيارتين إلى كل من دولتي الكويت والإمارات العربية المتحدة.

١٠ تشرين الأول/ أكتوبر

نشبت معارك بين مجاهدي سبين بولدك في ولاية قندهار، ومجموعة كانت تطلق على نفسها «الطلبة» من أجل فتح الطريق التجاري.

١٣ تشرين الأول/ أكتوبر

مجموعة طالبان تمكنت من السيطرة على مدينة سبين بولدك.

١٨ تشرين الأول/ أكتوبر

أعلن وزير الداخلية الباكستاني عن إطلاق قافلة تجارية أخرى إلى آسيا الوسطى.

١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر

حركة طالبان تُحكِم قبضتها على ولاية قندهار كلياً.

١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر

الأستاذ برهان الدين رباني يقوم بزيارة إلى جمهورية باكستان الإسلامية، يلتقي خلالها بالرئيس الباكستاني ورئيسة الوزراء بنازير بوتو.

١٢ كانون الأول/ ديسمبر

الأستاذ برهان الدين رباني يتوجه إلى الدار البيضاء بهدف الاشتراك في الدورة السابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي المنعقدة في المغرب.

العام ١٩٩٥

١١ شباط/ فبراير

طالبان تتمكن من بسط سيطرتها على ولاية لوغر.

١٣ شباط/ فبراير

حركة طالبان تستولي على مركز قيادة الحزب الإسلامي بقيادة قلب الدين حكمتيار في منطقة تشهار آسياب.

١١ آذار/ مارس

عبد العلي مزاري يلقى حتفه على يد حركة طالبان.

٥ أيلول/ سبتمبر

مدينة هرات تسقط في يد طالبان.

٦ أيلول/ سبتمبر

خرج سكان كابول إلى الشوارع احتجاجاً على سقوط هرات على يد طالبان، وقاموا بإحراق السفارة الباكستانية في كابول.

٩ كانون الأول/ ديسمبر

أعلنت حكومة باكستان عن نقل سفارتها إلى مدينة جلال آباد.

العام ١٩٩٦

٢١ شباط/ فبراير

في خطوة غير مرتقبة أعلن المهندس قلب الدين حكمتيار تعاونه مع الرئيس برهان الدين رباني.

٣١ شباط/ فبراير إلى ٢ نيسان/ أبريل

اجتمع عدد من علماء قندهار، وأطلقوا وصف أمير المؤمنين على الملا محمد عمر.

٢٦ حزيران/ يونيو

المهندس قلب الدين حكمتيار يدخل كابول بوصفه رئيساً للوزراء بعد الاتفاق الذي وُقع بينه وبين الدولة الإسلامية الأفغانية بزعامة برهان الدين رباني.

١١ أيلول/ سبتمبر

مدينة جلال آباد تسقط بيد طالبان.

٢٦ أيلول/ سبتمبر

العاصمة الأفغانية كابول تسقط في أيدي المجاهدين.

٢٧ أيلول/ سبتمبر

حركة طالبان أقدمت على إخراج نجيب الله من ملجئه في مبنى الأمم المتحدة، وقامت بشنقه مع أخيه أحمد زي في مكان عام في كابول.

٢٦ حزيران/ يونيو

ببرك كارمل رئيس أفغانستان الأسبق يموت في موسكو.

١٩ أيار/مايو **العام ١٩٩٧**

إسماعيل خان والي هرات يقع في الأسر مع أحد قادته البارزين، وتنقلهما طالبان إلى مقرها في قندهار.

٢٤ أيار/مايو

مدينة مزار الشريف تسقط في يد حركة طالبان.

٩ أيلول/سبتمبر

طالبان تعلن رسمياً وصف الإمارة الإسلامية على أفغانستان.

نبذة عن أفغانستان[*]

تقع أفغانستان في القارة الآسيوية بين خطوط العرض ٥٣ ـ ٢٢ ـ ٢٩ و٢٧ ـ ٢٩ ـ ٣٨ شمال البلد، وبين خطوط الطول ٤١ ـ ٢٨ ـ ٤٥ و٤٧ ـ ٥١ ـ ٧٤ شرقي البلد.

تحدها الجمهورية الإسلامية الإيرانية من الغرب، ومن الشمال كل من تركمانستان أوزباكستان وطاجيكستان. وتحدها الصين من الشمال الشرقي، وجمهورية باكستان الإسلامية من الشرق والجنوب.

تفصلها مسافة ٣٩٥ كلم عن بحر الهند، كما تشترك أفغانستان وجامو وكشمير بحدود مسافتها ١٥٢ كلم.

مساحة أفغانستان ٤٥٢٢٢٥ كلم مربعاً.

أفغانستان بلد جبلي، تخترقها قمم شاهقة تسمى سلسلة كندوكش، تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي وتنساب منها معظم أنهار أفغانستان.

سكانها

تتشكل أفغانستان من عرقيات متعددة، وعلى رأسها:

(*) أنظر كتاب أفغانستان مواطن الشعوب الإسلامية في آسيا.

١ ـ العرق الباشتوني، ويشكل ٥٥٪ من سكان البلاد.

٢ ـ العراق الطاجيكي ويشكل ٣٥٪.

وأما ما تبقى من سكانها فيتشكّل من قوميات أخرى، هي: الأوزبك، التركمان، والهزارة.

أهم مدنها

١ ـ كابول: وهي عاصمة البلاد السياسية، وتقع على نهر يسمى باسمها «نهر كابول».

٢ ـ هرات: تقع في غرب البلاد، على مساحة سهلية شاسعة.

٣ ـ قندهار: تقع على فرع من فروع نهر «هلمند»، وهي قريبة من الحدود الباكستانية.

٤ ـ مزار الشريف: واسمها القديم «بلخ». وهو الاسم الذي أطلقه عليها العرب قديماً ويعني أم البلاد. تقع شمال أفغاستان على حدود أوزباكستان.

تاريخها

في سنة ٣٣٠ قبل الميلاد، غزا الإسكندر المقدوني أفغانستان وأسس مدينتي «قندهار» و«هرات»، واستمر حكم اليونان بعده ما يقرب من مئتي سنة.

وبعد الامبراطورية الكوشانية، خضعت أفغانستان التي كان يطلق عليها اسم «خوراسان»، لحكم الساسانيين حتى قدم إليها الفاتحون المسلمون سنة ٢٢ للهجرة ـ ٦٣٩م بقيادة الأحنف بن قيس التميمي، واعتنق أهلها الإسلام، وتمسكوا به إلى الآن.



الشيخ عبد الله عزام يخطب في المجاهدين في بنجشير.



مسعود (أعلى) مع والده وإخوته .



مسعود مع قادته .



مسعود يؤم جنوده في الصلاة .



عزام (وسط) ونجلاه مع عبد الله أنس في وادي بنجشير .



عبد الله أنس (وسط) ومسعود مع مجموعة من المجاهدين .

مسعود في وادي بنجشير .





عبد الله أنس في الشمال .



عبد الله عزام في آخر أيامه .



الأستاذ آرينبود وإبراهيم نجل الشيخ الذي استشهد معه في الانفجار .



ذبيح الله أمير ولاية مزار الشريف .



وادي بنجشير .



مسعود في آخر أيامه .